

الفصل الثالث

الجهر بالدعوة وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأول

الجهر بالدعوة

بعد الإعداد العظيم الذي قام به النبي ﷺ لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية، وتعبدية، وخلقية رفيعة المستوى، حان موعد إعلان الدعوة، بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ [الشُّعْرَاءُ: ٢١٤، ٢١٥].

فجمع قبيلته ﷺ وعشيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بآله واحد، وخوفهم من العذاب الشديد إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار، وبيّن لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه^(١).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» - لبطنون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتمنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ (٢) وفي رواية - ناداهم بطناً بطناً، ويقول لكل بطن: «أنقذوا أنفسكم من النار...»، ثم قال: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها بيلالها»^(٣).

كان القرشيون واقعيين عمليين، فلما رأوا محمداً ﷺ وهو الصادق الأمين، قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهدهم إنصافهم

(١) رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٤٦/٣).

(٢) البخاري - كتاب التفسير - سورة الشعراء ورقمه (٤٧٧٠) والآيات من سورة المسد (١، ٢).

(٣) مسلم، كتاب الإيمان [٣٤٨-٢٠٤].

وذكأؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفاً بمقام النبوة، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية والعلوم الوهية، وموعظة وإنذاراً، في حكمة وبلاغة، لا نظير لهما في تاريخ الديانات والنبوات، فلم تكن طريق أقصر من هذا الطريق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم^(١)، ولكن أبا لهب قال: «تبأ لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا»؟.. وبهذا كان النبي ﷺ قد وضع للأمة أسس الإعلام، فقد اختار مكاناً عاليًا وهو الجبل ليقف عليه، وينادي على جميع الناس، فيصل صوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطات الإرسال في عصرنا الحديث، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعي، ثم اختار لدعوته الأساس المتين ليبنى عليه كلامه وهو الصدق، وبهذا يكون ﷺ قد علم رجال الإعلام والدعوة أن الاتصال بالناس بهدف إعلامهم أو دعوتهم، يجب أن يعتمد - وبصفة أساسية - على الثقة التامة بين المرسل والمستقبل، أو بين مصدر الرسالة والجمهور الذي يتلقى الرسالة، كما أن المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه^(٢).

«ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته وتأييده، وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام، لا بد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، لأن الإسلام - كما يتجلى من القرآن الكريم - اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية»^(٣)، فقد جاءت الآيات المكية تبين عالمية الدعوة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

ثم جاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس، على اختلاف قبائلهم وبلدانهم، ويتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير^(٤)، حين نزول قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٤ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ٩٥ ﴿الَّذِينَ يَجْمَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص ١٣٨).

(٢) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٢١).

(٣) انظر: دراسات في السيرة، عماد الدين خليل (ص ٦٦).

(٤) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٤٨، ٤٩).

يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعَأْنَاكَ يَا بَعِيبُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿[الحجر: الآيات ٩٤-٩٧].

كانت النتيجة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي ﷺ وصحابه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان، وكان هذا في حد ذاته مكسباً عظيماً للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كان يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى زعماء الكفر والشرك.

كان الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة، وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ، وصار هذا الحدث العظيم حديث الناس في المجالس ونوادي القبائل، وفي بيوت الناس^(١).

* أهم اعتراضات المشركين:

كان أهم اعتراضات زعماء الشرك موجهة نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النبي ﷺ، والقرآن الكريم الذي أنزل عليه من رب العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والرد عليها:

أولاً: اعتراضهم على الوحدانية:

لم يكن كفار مكة ينكرون أن الله خلقهم وخلق كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: الآية ٢٥]. لكنهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدعوة إلى التوحيد بأعظم إنكار، وأشد استغراب^(٣)، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٤﴾ أَعْمَلُ الْآلِهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَعَمْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خَيْلٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: الآيات ٤-٧] ولم يكن تصورهم لله تعالى ولعلاقته بخلقه صحيحاً، إذ كانوا يزعمون أن الله تعالى صاحبة من الجن، وأنها

(١) انظر: الغرياء الأولون (ص ١٦٧).

(٢) زلفى: قربي.

(٣) انظر: رسالة الأنبياء (٣/٥٢).

(٤) احتجوا بما عليه النصارى من الشرك والتثليث.

ولدت الملائكة، وأن الملائكة بنات الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!

فكانت الآيات تنزل مُبَيِّنَةً أن الله ﷻ خلق الجن، والملائكة، كما خلق الإنس، وأنه لم يتخذ ولداً، ولم تكن له صاحبة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا (١) لَمْ يَبِينْ وَبَدَلْتُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُصِفُونَ (٣٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ يَكُونُ لَهُمُ وَاَلِدٌ وَأَلَمَ تَكُنْ لَهُمُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣١)﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١]. ومُبيِّنة أن الجن يقرون الله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ سَبَابًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصفات: الآية ١٥٨].

ومطالبة المشركين باتباع الحق، وعدم القول بالظنون والأوهام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةً الْأُنثَىٰ (٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَخْتَعِرُونَ إِلَّا الْغَلْبُ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (١٨)﴾ [التجم: ٢٧، ٢٨]. وموضحة أنه لا يعقل أن يمنح الله المشركين البنين، ويكون له بنات، وهن أدنى قيمة في رأيهم من البنين: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بِالْبَنِينَ وَأَتَّخِذُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكَ لَلْقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٠].

ومُحمِّلة المشركين مسئولية أقوالهم التي لا تقوم على دليل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ سَهْدُهُمْ وَيُسْتَلُونَ﴾ [الزخرف: الآية ١٩].

ثانياً: كفرهم بالآخرة:

أما دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسخرية والتكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِثُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ بِكُمْ كُلِّ مَمْرٍ إِنَّكُمْ لَبِئْسَ خَلْقٌ كَاذِبِينَ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: الآيات ٨، ٧] فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٩].

ويقسمون على ذلك بالإيمان المغلظة:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيْعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [التحل: الآيات ٣٨، ٣٩] وكانوا يظنون أنه لا توجد حياة في غير الدنيا، ويطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآخرة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا نُسِئَتْ عَلَيْهِمْ عَائِنُنَا يَنْتَصِبُونَ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَشَاءُنَا بِنَاهِبَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣١) وَلِلَّهِ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٤﴾ [الجمانية: الآيات ٢٤-٢٧].

وفاتهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد وغيره: جاء أبي بن خلف^(١) إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفتته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يبعثك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات^(٢) ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس: الآيات ٧٧-٧٩].

كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة، والتجاوب مع القلوب، فقد ذكّر الله عباده أن حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، لبيان الطريق الذي به يعبدونه ويطيعونه، ويتبعون أمره، ويجتنبون نهيه، فمن العباد من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى. أفليس بعد أن يموت الطالح والصالح، لا بد أن يجزي الله المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قال تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ الْمُتَّبِعِينَ كَالْمُتَّبِعِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ ﴿٣٨﴾ [القلم: الآيات ٣٥-٣٨]. إن الملاحظة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح، والكافر المفسد، ولا بين التقي والفاجر^(٣) قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٧﴾ [ص: الآيات ٢٧، ٢٨].

وضرب القرآن الكريم للناس الأمثلة في إحياء الأرض بالنبات، وإن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية: ﴿فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْجَىٰ الْمَوْقُوتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ [الرؤم: الآية ٥٠].

وذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدنيا، فأخبر الناس في كتابه عن أصحاب الكهف، بأنه ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاوله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمْدَانًا ﴿١٢﴾ [الكهف: الآية ١٢]. ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَسَاءَ لَوْا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالَ أَوَّيْحَكَ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٣﴾ [الكهف:

(١) وفي رواية عن ابن عباس أنه العاص بن وائل.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥٨١).

(٣) انظر: الوسطية في القرآن الكريم (ص ٤٠٢).

الآية ١٩]. ﴿وَلَيْسُوا فِي كُفُهِمْ تِلْكَ مِائَةٌ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تَسْعًا﴾ [الكهف: الآية ٢٥] وغير ذلك من الأدلة والبراهين التي استخدمها رسول الله ﷺ في مناظراته مع زعماء الكفر والشرك.

ثالثاً: اعتراضهم على رسول الله ﷺ:

اعترضوا على شخص الرسول ﷺ، فقد كانوا يتصورون أن الرسول لا يكون بشراً مثلهم، وأنه ينبغي أن يكون ملكاً، أو مصحوباً بالملائكة: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٤].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩].

أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة لكان على هيئة الرجل، يمكنهم مخاطبته والأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر^(١)، وكانوا يريدون رسولاً لا يحتاج إلى طعام وسعي في الأسواق: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧ - ٨]. وكانهم لم يسمعوا بأن الرسل جميعاً كانوا يأكلون ويسعون ويعملون: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: الآية ٢٠].

ويريدون أن يكون الرسول كثير المال، كبيراً في أعينهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣١]. ويريدون الوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف^(٣).

ونسبوا الرسول ﷺ إلى الجنون:

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر: ٦ - ٧].

﴿أَنْ لَّهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الدخان: الآية ١٣ - ١٤].

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٢٤).

(٢) اخترنا بعضكم ببعض.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/١٢٦، ١٢٧).

ورد الله عليهم بقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [الفلم: الآية ٢].

كما نسبوه إلى الكهانة والشعر:

﴿فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّذَرْنَا بِهِ رَبَّيَ الْمَتُونِ (٣٠) ﴿[الطور: ٢٩-٣٠].

كما أنهم كانوا يعلمون أنه لا ينظم الشعر، وأنه راجح العقل، وأن ما يقوله بعيد عن سجع الكهان، وقول السحرة^(١).

ونسبوه ﷺ إلى السحر والكذب: ﴿وَيَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ [ص: الآية ٤].

﴿فَمَنْ أَعْرَفَ بِمَا يَسْتَعْمُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَعْمُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧) أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآيتان ٤٧، ٤٨] وكانت الآيات تنزل على رسول الله ﷺ تفند مزاعم المشركين، وتبين له أن الرسل السابقين استهزئ بهم، وأن العذاب عاقبة المستهزئين: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزِئُوا بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠] وتعلمه أن المشركين لا يكذبون شخصه، ولكنهم يكذبون رسالته، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل^(٢): ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا بِكَذِبُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ بَغَابِتُ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٣].

رابعاً: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدقوا أن القرآن الكريم منزل من الله، واعتبروه ضرباً من الشعر، الذي كان ينظمه الشعراء، مع أن كل من قارن بين القرآن وبين أشعار العرب يعلم أنه مختلف عنها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ [يس: الآيتان ٦٩، ٧٠] وكيف يكون القرآن شعراً، وقد نزل فيه ذم للشعراء الذين يضلون الناس، ويقولون خلاف الحقيقة^(٣).

﴿وَالشُّعْرَاءَ بَتَّعُهُمُ الْفَاوُونَ﴾ (٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٣٥) وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: الآيات ٢٢٤-٢٢٦] فهو كلام الله المنزل على رسوله، وليس شبيهاً بقول الشعراء، ولا بقول الكهان: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُدَّكَّرُونَ﴾ (٤٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٣) ﴿[الواقعة: ٤٠-٤٣].

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٥٧/٣).

(٣) المصدر نفسه (٥٩/٣).

(٢) المصدر نفسه (٥٨/٣).

(٤) يعني: الضالون.

وقد أدرك الشعراء قبل غيرهم، أن القرآن الكريم ليس شعراً^(١)، ومن فرط تكذيبهم وعنادهم قالوا: إن محمداً يتعلم القرآن من رجل أعجمي^(٢)، كان غلاماً لبعض بطون قريش، وكان يباعاً، يبيع عند الصفا، وربما كان الرسول ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء. وذاك كان أعجمي اللسان، لا يعرف من العربية إلا اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: الآية ١٠٣].

أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن من فصاحته وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة، من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل^(٣).

واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملة واحدة، مع أن نزوله مُفْرَقًا أَدْعَى لِتَثِيْتِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَتَيْسِيرِ فَهْمِهِ وَحِفْظِهِ وَامْتِنَالِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: الآية ٣٢].

فلما اعترض المشركون على القرآن، وعلى ما أنزل عليه بهذه الاعتراضات، تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنسان والجن مجتمعين عن ذلك: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٨].

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سور مثله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْهُرِّ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: الآيتان ١٣، ١٤].

وحتى السورة الواحدة هم عاجزون عنها: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: الآيتان ٣٧، ٣٨].

فعجزهم، مع أن الفصاحة كانت من سجايهم، وكانت أشعارهم ومعلقاتهم في قمة البيان، دليل على أن القرآن كلام الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين^(٤).

(١) انظر: رسالة الأنبياء (٥٩/٣).

(٢) انظر: تهذيب السيرة (٧٤/١، ٩٠)، وانظر سيرة ابن هشام (ق ٣٩٣/١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥٨٦/٢).

(٤) انظر: رسالة الأنبياء (٦٦/٣).

المبحث الثاني

سنة الابتلاء

الابتلاء - بصفة عامة - سنة الله في خلقه، وهذا واضح في تقارير القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْوَسْطَةَ فِي الْوَسْطِ وَالْأَرْضَ رَافَعًا بِمَضْمُونِكُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَنْبَلُوهَا أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧]. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: الآية ٢].

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً؛ فلقد جرت سنة الله تعالى ألا يُمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله - تعالى - أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي رحمته الله حين سأله رجل: أيهما أفضل للمراء، أن يُمكن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يُمكن حتى يبتلى، فإن الله - تعالى - ابتلى نوحاً وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة^(١).

حكمة الابتلاء وفوائده:

للابتلاء حكم كثيرة من أهمها:

١ - تصفية الصفوف:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل، وذلك لأن المرء قد لا يكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة، قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢].

٢ - تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيد قطب رحمته الله: «ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة، التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليدها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس، وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها؛ إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»^(٢).

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٢٨٣)..

(٢) في ظلال القرآن (٢/١٨٠).

٣ - الكشف عن خبايا النفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ماهو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه»^(١).

٤ - الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص، لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام. وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء. والنفس تصهرها الشدائد، فتتفي عنها الخبيث، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة، فيشتد عودها، ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقواها طبيعة، وأشدّها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»^(٢).

٥ - معرفة حقيقة النفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدعوة حقيقة أنفسهم وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزلق الطريق، ومسارب الضلال»^(٣).

٦ - معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غث وبلأ، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال، فلا يفرطوا فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»^(٤).

٧ - الدعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامته لهذا الدين، وهي التي تدخل الناس في دين

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٨٧) أو (٥/٢٧٢٠).

(٢) المصدر نفسه (٦/٣٨٩) أو (٥/٢٧٢١).

(٣) المصدر نفسه (٢/١٨١).

(٤) المصدر نفسه (٢/١٨٠).

الله، ولو وهنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي ﷺ ثم يأتيه أمر النبي ﷺ أن يمضي إلى قومه، يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وأذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله ﷺ^(١)، وسنرى ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله.

٨ - جذب بعض العناصر القوية إليها:

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية، تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق^(٢).

٩ - رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات:

قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، أو حطَّ عنه بها خطيئة»^(٣)، فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعلمه فيتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أن الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم^(٤).

كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها: معرفة عز الربوبية وقهرها، معرفة ذل العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرع والدعاء، الحلم عمن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاد، ومساعدتهم على بلوهم، معرفة قدر نعمة العافية، والشكر عليها؛ ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد. ومن أراد التوسع فليراجع كتاب فقه الابتلاء^(٥).

المبحث الثالث

أساليب المشركين في محاربة الدعوة

أجمع المشركون على محاربة الدعوة التي عرَّت واقعهم الجاهلي، وعابت آلهتهم، وسفَهت أحلامهم - أي آراءهم وأفكارهم - وتصوراتهم عن الله والحياة، والإنسان والكون، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة، وإسكات صوتها، أو تحجيمها، وتحديد مجال انتشارها.

(١) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٩٢، ١٩٣).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٩٣، ١٩٤).

(٣) مسلم بشرح النووي (١/١٢٧، ١٢٨)، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن، ورقمه (٢٥٧٢).

(٤) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٤)، وانظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيك (ص ٨ - ١١).

(٥) انظر: فقه الابتلاء، محمد أبو صعيك (ص ١٥ - ٢٨).

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة وحماية رسول الله ﷺ:

«جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا... فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: «إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديتهم ومسجدهم، فانتبه عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «ترون هذه الشمس؟». قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة» وفي رواية: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا راشدين»^(١) وحاولت قريش مرات عديدة الضغط على رسول الله ﷺ بواسطة عائلته ولكنها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه، وتصميمه على مناصرته، وعدم خذلانه، فاشتد ذلك على قريش غمًا وحسدًا ومكرًا، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، أنهت فتى في قريش، وأجمله، فلك عقله»^(٢) ونصره، واتخذة ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسقته أحلامنا، فقتله فإنما هو رجل برجل» قال: «والله لبئس ما تسوموني، أنتعظوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدًا»^(٣).

وإن المرء ليسمع عجبًا، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله ﷺ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد ﷺ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم، وبني المطلب إليه في حلف واحد، على الحياة والموت، تأييدًا لرسول الله ﷺ، مسلمهم ومشركهم على السواء^(٤)، وأجار ابن أخيه محمدًا إجارة مفتوحة، لا تقبل التردد أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهلية والتقاليد العربية، تسخر من قبل النبي ﷺ لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله ﷺ، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدو الله اللعين.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من جهدهم معه، وحذبهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم، ليحذبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر
وإن حُصّلت أشرافُ عبدٍ منافها
وإن فخرت يوماً فإنَّ محمدًا
فعبدُ مناف سرها وصميمُها
ففي هاشم أشرافُها وقديمها
هو المصطفى من سرّها وكريمها

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٧٨). (٣) البداية والنهاية (٤٨/٣).

(٢) فلك عقله: أي ديته إذا قتل. (٤) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ١٨٤).

تداعت قريشُ غَثَّها وسميئُها علينا فلم تظفّر وطاشت حُلومها
 وكنا قديمًا لا نُقرُّ ظلامًا إذا ما نثنا صُغر الخدود نُقيمها^(١)
 وحين حاول أبو جهل أن يخفر جوار أبي طالب، تصدى له حمزة، فشجه بقوسه وقال له:
 تشتم محمدًا وأنا على دينه، فرد ذلك إن استطعت.

إنها ظاهرة فذة، أن تقوم الجاهلية بحماية من يسب آلهتها، ويعيب دينها، ويسفه أحلامها،
 وباسم هذه القيم يقدمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يمس محمد
 بسوء.

ولما خشي أبو طالب دَهْماء العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوّد فيها بحرمة
 مكة، وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنه
 غير مسلم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه فقال:

ولمّا رأيتُ القوم لا وُدّ فيهمُ وقد صارحونا بالعداوة والأذى
 وقد طاعونا أمرَ العدوّ المُزايِل وقد حالفوا قومًا علينا أظنّةً
 صبرتُ لهم نفسي بسَمراء^(٢) سَمحةٍ وأبيضُ^(٣) عَضْب من تُراثِ المَقاول
 وأحضرتُ عند البيتِ رَهطي وإخوتي وأمسكت من أثنوايه بالوصائل^(٤)
 وتعوذ بالبيت وبكل المقدسات التي فيه، وأقسم بالبيت، بأنه لم يسلم محمدًا ولو سالت
 الدماء أنهارًا، واشتدت المعارك مع بطون قريش:

كذبتُم وبيت الله نُبزي^(٥) محمدًا ولمّا نطاعن دونه ونناضل
 ونُسلمه^(٦) حتى نصرع حوله ونذمّل عن أبنائنا والحلائل^(٧)
 وينهض قوم في الحديد إليكم نهوض الرّوايا^(٨) تحت ذات الصّلاصل^(٩)
 وقَرع زعماء بني عبد مناف، بأسمائهم لخذلانهم إياه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فَعُتْبَة لا تَسْمَع بنا قولَ كاشِحٍ حَسود كذوب مُبغض ذي دِغاول^(١٠)
 ولأبي سفيان بن حرب يقول:

ومرَّ أبو سفيان عني مُعْرِضًا كما مرَّ قَيْل^(١١) من عظامِ المَقاول

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٦٩).

(٢) سمراء: كناية عن المرح.

(٣) أبيض عضب: كناية عن السيف.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٧٣).

(٥) نُبزي: أي نُسبته وتُغلب عليه.

(٦) ونسلمه حتى نصرع حوله، أي كذبتُم أن نسلمه

قبل أن نصرع حوله.

(٧) الحلائل: الزوجات.

(٨) الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.

(٩) الصلاصل: المزايدات لها صلصلة بالماء.

(١٠) الدغاول: الدواهي.

(١١) قَيْل: الرئيس الكبير في اليمن.

يَفِرُّ إِلَى نَجْدٍ وَيَبْرِدُ مِيَاهَهُ وَيَزْعُمُ أَنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلٍ^(١)
وللمطعم بن عدي سيد بني نوفل يقول:

أَمْطَعِمُ لَمْ أَخْذُلْكَ فِي يَوْمِ نَجْدَةٍ وَلَا مُعْظِمُ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلَائِلِ
أَمْطَعِمُ إِنْ الْقَوْمَ سَامُوكَ خُطَّةً وَإِنِّي مَتَى أَوْكَلْتُ فَلَسْتُ بِوَائِلٍ^(٢)
جزى الله عنّا عبد شمس ونوفلاً عُقُوبَةَ شَرِّ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ^(٣)

لقد كان كسب النبي ﷺ عمه في صفّ الدفاع عنه، نصرًا عظيمًا، وقد استفاد ﷺ من العرف القبلي فتمتع بحماية العشيرة، ومُنِعَ من أي اعتداء يقع عليه، وأعطى حرية التحرك، والتفكير، وهذا يدل على فهم النبي ﷺ للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم، والاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانيًا: محاولة تشويه دعوة الرسول ﷺ:

قام مشركو مكة بتشويه دعوة الرسول ﷺ، ولذلك نظمت قريش حربًا إعلامية ضده، لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة، حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا.

- فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيًا نقول به.

- قال: بل أنتم قولوا أسمع.

- فقالوا: نقول كاهن.

- فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمنة^(٤) الكاهن وسجعه.

- فقالوا: نقول مجنون.

- فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

- فقالوا: نقول شاعر.

- فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، ص ٢١٢. (٢) انظر: فقه السيرة النبوية (ص ٢١٢).

(٢) لست بوائيل: لست بناج. (٤) الزمنة: كلام خفي لا يسمع.

- قالوا: فنقول ساحر.

- قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفته ولا عقده.

- قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق^(١)، وإن فرعه لجناة^(٢)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته^(٣).

فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ۝۱۱ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ۝۱۲ وَيَبِينُ شُهُودًا ۝۱۳ وَمَهَّدْتُ لَمْ تَهْيِيدًا ۝۱۴ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝۱۵ كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لِآيَاتِنَا عِينًا ۝۱۶ سَأُرْهِفُهُمْ صَوْعًا ۝۱۷ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرَ ۝۱۸ فَعِيلٌ كَيْفَ قَدَّرَ ۝۱۹ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝۲۰ ثُمَّ نَظَرَ ۝۲۱ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝۲۲ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝۲۳ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَىٰ ۝۲۴ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝۲۵ سَأُصْلِحَهُ سَقَرًا﴾ [المذثر: الآيات ١١ - ٢٦].

ويتضح من هذه القصة، أن الحرب النفسية المضادة للرسول ﷺ لم تكن توجه اعتباراً، وإنما كانت تعد بإحكام ودقة بين زعماء الكفار، وحسب قواعد معينة، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث، كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمع الناس في موسم الحج، والاتفاق وعدم التناقض، وغير ذلك من هذه الأسس حتى تكون حملتهم منظمة، وبالتالي لها تأثير على وفود الحجيج، فتؤتى ثمارها المرجوة منها. ومع اختيارهم للزمان المناسب، فقد اختاروا أيضاً مكاناً مناسباً حتى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكة^(٩)، ويتضح من هذا الخبر، عظمة النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش، ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاضم، فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له، واعترف بعظمته، ووصفه بذلك

(١) العذق: النخلة.

(٢) الجناة: ما يجنى من الثمر.

(٣) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٥٠، ١٥١)، تهذيب السيرة (١/٦٤، ٦٥)، سيرة ابن هشام (ق ١/٢٧٠، ٢٧١).

(٤) واسعاً.

(٥) أي: عذاباً شديداً.

(٦) أي: تروى ماذا يقول في القرآن.

(٧) أي: قبض بين عينيه وكلع وقطب.

(٨) أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم.

(٩) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٠٣).

الوصف البليغ^(١)، وهو في حالة استجابة لنداء العقل، ولم تستطع تلك الحرب الإعلامية المنظمة أن تحاصر دعوة رسول الله ﷺ، بل استطاع محمد ﷺ أن يخترق حصار الأعداء، الذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله ﷺ، وتشويه سمعته عندهم، بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم؛ ليستموا أفكارهم، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه، والتأثر بدعوته، فقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته، بليغاً في التأثير فيمن خاطبه حيث يؤثر فيمن جالسه بهيئته، وسمته ووقاره، قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ، المتمثل في العقل السليم، والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء، والنية الخالصة في هداية الأمة، بوحى الله تعالى^(٢)، ومن أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة، والأخلاق الكريمة، وقدرته على اختراق الجدار الحديدي، الذي حاول زعماء مكة ضربه عليه، ما كان من موقفه مع ضمام الأزدي، وعمرو بن الطفيل الدوسي، وأبي ذر، وعمرو بن عبسة .

١ - إسلام ضمام الأزدي ﷺ :

وفد ضمام الأزدي إلى مكة وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله ﷺ، حتى استقر في نفسه أنه مصاب بالجنون، كما يتهمه بذلك زعماء مكة؛ وكان ضمام من أزد شنوءه، وكان يعالج من الجنون، فلما سمع سفهاء مكة يقولون إن محمداً ﷺ مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي.

قال: فلقية. فقال: يا محمد، إني أرقى من هذه الريح^(٣)، وإن الله يشفي على يدي من شاء. فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد».

قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر^(٤)، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة، وكانت سرايا رسول الله تبعث، فمروا على قوم ضمام، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم:

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحمدي (١/١٢٣).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحمدي (١/١٢٧، ١٣٧).

(٣) الريح هنا: المراد بها الجنون ومس الجن.

(٤) ناعوس البحر (وفي نسخ أخرى قاموس): معناه وسطه، أو لجنته أو قعره الأقصى.

أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها. فإن هؤلاء قوم ضِماد^(١).

● دروس وفوائد:

أ - دعاية قريش، وتشويه شخص الرسول ﷺ، واتهامه بالجنون حمل ضِمادًا على السير للرسول ﷺ من أجل رقيته، فكانت الحرب الإعلامية المكية ضد الرسول ﷺ سببًا في إسلامه، وإسلام قومه.

ب - تتضح صفتا الصبر والحلم في شخص النبي ﷺ، فقد عرض ضِماد على رسول الله ﷺ معالجته، من مرض الجنون، وهذا موقف يثير الغضب، ولكن رسول الله ﷺ استقبل الأمر بحلم وهدوء، مما أثار إعجاب ضِماد، واحترامه لرسول الله ﷺ.

ج - أهمية هذه المقدمة التي يستفتح بها رسول الله ﷺ بعض خطبه، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يجعلها بين يدي خطبه ومواعظه.

د - تأثر ضِماد بفصاحة رسول الله ﷺ وقوة بيانه، لأن حديث الرسول ﷺ انبعث من قلب مُلئاً إيمانًا و يقينًا وحكمة، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب ويجذبها إلى الإيمان.

هـ - في سرعة إسلام ضِماد دليل على أن الإسلام دين الفطرة، وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية والخارجية، فإنها غالبًا تتأثر وتستجيب، إما بسماع قول مؤثر، أو الإعجاب بسلوك قديم.

و - حرص الرسول ﷺ على انتشار دعوته، حيث رأى في ضِماد صدق إيمانه، وحماسه للإسلام، وقوة اقتناعه به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

ز - وفي هذا بيان واضح لأهمية الدعوة إلى الله تعالى، حيث جعلها النبي ﷺ قرينة الالتزام الشخصي، فقد بايع رسول الله ﷺ على الالتزام بالدين، فلم يكتف رسول الله بذلك، بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

ح - حفظ المعروف، والود لأهل السابقة والفضل «ردوها فإن هؤلاء من قوم ضِماد»^(٢).

ط - في الحديث بعض الوسائل التربوية التي استعملها النبي ﷺ مع ضِماد، كالتأني في الحديث، وأسلوب الحوار، والتوجيه المباشر، وتظهر بعض الصفات في شخصية رسول الله ﷺ كمرّب، كالحلم والصبر، والتشجيع على الإكثار من الخيرات.

(١) مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (رقم ٨٦٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (١/١٣٢، ١٣٣)، وانظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى يحيى (ص ١١١-١١٣).

٢ - إسلام عمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه :

قال: عمرو بن عبسة السُّلَمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جراء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد» قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فاتني».

قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع. وقد أراد قومه قتله، فلم يستطيعوا ذلك. فقدمت المدينة، فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم. أنت الذي لقيتني بمكة؟».

وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء^(١).

دروس وعبر:

- أ - عمرو بن عبسة كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهلية.
- ب - كانت الحروب الإعلامية الضروس التي شنتها قريش على رسول الله ﷺ سببًا في تتبع عمرو بن عبسة لأخبار الرسول ﷺ.
- ج - جرأة وشدة قريش على رسول الله ﷺ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفيًا وقومه جراء عليه.
- د - الأدب في الدخول على أهل الفضل والمنزلة، قال عمرو بن عبسة: «فتلطفت حتى دخلت عليه».
- هـ - الرسالة المحمدية تقوم على ركيزتين: حق الله، وحق الخلق، قال ﷺ: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان» وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام، حيث كان هذا الخلق العظيم ألصق ما يكون بدعوة الإسلام، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة، مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب، وفي هذا دلالة

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين (رقم ٨٣٢).

على أهمية إزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لا تستقر ولا تنتشر، إلا بزوال هذه المعالم.

و - وفي اهتمام النبي ﷺ المبكر بإزالة الأوثان، مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت، دلالة على أن أمور الدين لا يجوز تأخير بيانها للناس، بحجة عدم القدرة على تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين ما يستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة، والجهاد، هؤلاء دعوتهم ناقصة، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهلية وطغاتها، وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه^(١).

ز - حرص الرسول ﷺ على أمان صحابته، وتوفير الجو الأمن، والسير بهم إلى بر الأمان وإبعادهم عن التعرض للمضايقات، قال لعمر بن عبد العباس: «إنك لا تستطيع يومك هذا...».

ح - تذكر رسول الله ﷺ لأحوال أصحابه وعدم نسيان مواقفهم، قال: «أنت الذي لقيتني بمكة».

ط - لم يكن رسول الله ﷺ يعطي كل من أسلم قائمة بأسماء أتباعه، فهذا ليس للسائل منه مصلحة، ولا يتعلق به بلاغ، ولذلك لما سأل عمرو بن عبد العباس عن تبعه قال: «حر وعبد» وهذه تورية، كما قال ابن كثير، بأن هذا اسم جنس، فهِمَّ منه عمرو أنه اسم عين^(٢).

ي - في قوله ﷺ «ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي ظهرت فاتني»، نأخذ منه درسًا في الدعوة؛ أن تكديس المريدين والأعضاء حيث المحنة والإيذاء، ليس هو الأصل، فهذا رسول الله ﷺ يوجه نحو الرجوع إلى الأقوام، وأمر كما نرى بالهجرتين إلى الحبشة، فذلك تخفيف عن المسلمين، وإبعاد عن مواطن الخطر، وستر لقوة المسلمين، وإعطاء فرصة للقائد حتى لا ينشغل، وضمان للسرية، وإفادة للمكان المرسل إليه، وإعداد للمستقبل، وملاحظة لضمان الاستمرار، وتجنب الاستئصال^(٣).

وممن أسلم بسبب الحرب الإعلامية ضد الرسول ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي، وجاءت قصته مفصلة في كتب السيرة، ويرى الدكتور أكرم ضياء العمري، أنه لم يثبت منها إلا أنه دعا رسول الله ﷺ للالتجاء إلى حصن دوس المنيع، فأبى رسول الله ﷺ ذلك^(٤)، وأشارت رواية

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحمدي (١/١٠٩).

(٢) انظر: الرحي وتبليغ الرسالة (ص ١٠٦، ١٠٩).

(٣) انظر: الأساس في السنة، سعيد حوى (١/١٢٦).

(٤) صحيح مسلم (١/١٠٩).

صحيحة إلى أن الطفيل دعا قومه إلى الإسلام ولقي منهم صدودًا، حتى طلب الطفيل من رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، لكن رسول الله ﷺ دعا لهم بالهداية^(١). وكان الرسول آتئذ بالمدينة المنورة^(٢).

٣ - إسلام الحصين والد عمران ؓ :

جاءت قريش إلى الحصين - وكانت تعظمه - فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آهتنا، ويسبهم، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبًا من باب النبي ﷺ فقال: «أوسعوا للشيخ». وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك، أنك تشتم آهتنا، وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة^(٣) وخيرًا؟ فقال: «يا حصين، إن أبي وأباك في النار، يا حصين، كم تعبد من إله؟» قال: سبعا في الأرض، وواحدًا في السماء. فقال: «فإذا أصابك الضر من تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فإذا هلك المال من تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلم مثله. قال: «يا حصين، أسلم تسلم». قال: إن لي قوماً وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «قل: اللهم أستهديك لأرشد أمري، وزدني علمًا ينفعني». فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران فقبل رأسه، ويديه، ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى، وقال: «بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه، فدخلني من ذلك الرقة». فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «قوموا فشيعوه إلى منزله» فلما خرج من سدة الباب رآه قريش، فقالوا: صبأ وتفرقوا عنه^(٤).

ولعل الذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السرعة، سلامة فطرته وحسن استعداده من ناحية، وقوة حجة الرسول ﷺ وسلامة منطقته من ناحية أخرى^(٥).

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ استخدم أسلوب الحوار مع الحصين ؓ، لغرس معاني التوحيد في نفسه، ونسف العقائد الباطلة التي كان يعتقدونها.

٤ - إسلام أبي ذر ؓ :

كان أبو ذر ؓ منكرًا لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله،

(١) صحيح البخاري، فتح الباري (١٠٧/٦).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٧٦/٢)، انظر: السيرة النبوية الصحيحة، د. العمري (١٤٦/١).

(٣) حصينة: يعني عاقلاً متحصناً بدين آبائه وأجداده ومعتقداتهم. انظر: النهاية لابن الأثير (٢٣٤/١).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣٣٧/١) وعنه نقل الشيخ محمد يوسف في: حياة الصحابة (٧٥/١)، (٧٦).

(٥) انظر: فقه الدعوة الفردية، د. السيد محمد نوح (ص ١٠٤).

وكان يصلي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات، دون أن يخصص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي ﷺ قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه، فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام، فمكث حتى أمسى، فرآه علي فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدمه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول ﷺ، فقال له علي: فإنه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيتُ شيئاً أخاف عليك فمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول ﷺ واستمع إلى قوله، فأسلم، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري». فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثار القوم حتى أضجعوه، فأتى العباس بن عبد المطلب، فحذرهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم، التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم^(١)، وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخاه، ليعلم له علم النبي ﷺ، ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني^(٢) مما أردت^(٣)، وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله ﷺ، فقال أخوه له: «وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شَفَفُوا له وتجهموا»^(٤).

• دروس وعبر وفوائد:

- أ - شيوع ذكر رسول الله ﷺ بين القبائل، وأكثر من ساهم في ذلك مشركو قريش، بما اتخذوه من منهج التحذير والتشويه لرسول الله ﷺ، ولما جاء به، حتى وصل ذكره قبيلة غفار.
- ب - تميز أبي ذر بأنه رجل مستقل في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات، ولا تستفزعه الدعايات، فيقبل كل ما تنشره قريش، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله ﷺ بعيداً عن التأثيرات الإعلامية.
- ج - شدة اهتمام أبي ذر بأمر الرسول ﷺ: فلم يكتف بالمعلومات العامة التي جاء بها أخوه أنيس، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إن مجال البحث ليس عن رجل يأمر بالخير فحسب، وإنما عن رجل يذكر أنه نبي، ولذلك تحمل المشاق، والمتاعب وشظف العيش، والغربة عن الأهل والوطن في سبيل الحق، فأبو ذر ترك أهله واكتفى من الزاد

(١) صحيح البخاري (فتح الباري) (١٧٣/٧).

(٢) ما شفيتني مما أردت: ما بلغتني غرضي وأزلت عني همي.

(٣) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٨٣).

(٤) صحيح مسلم [٤/ ١٩٢٣ - ورقمه (٢٤٧٣)] وشففوا له: أي أبغضوه. وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١٤٥/١).

بجرباب، وارتحل إلى مكة، لمعرفة أمر النبوة^(١).

د - الثاني والتريث في الحصول على المعلومة: حيث تأنى أبو ذر رضي الله عنه، لما يعرفه من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا الثاني تصرف أمني، تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأل عنه، لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرده، ويخسر الوصول إلى هدفه، الذي من أجله ترك مضارب قومه، وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

هـ - الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي رضي الله عنه أبا ذر رضي الله عنه عن أمره وسبب مجيئه إلى مكة، لم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام إمعاناً في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتفم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده، فهذا غاية في الاحتياط، وتم ما أرادته.

و - التغطية الأمنية للتحرك: تم الاتفاق بين علي وأبي ذر رضي الله عنهما على إشارة، أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى علي رضي الله عنه من يترصدهما، أو يراقبهما، فهذه تغطية أمنية لتحركهم تجاه المقر (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي، فيُعد هذا الموقف احتياطاً وتحسباً لكل طارئ، قد يحدث أثناء التحرك.

ز - هذه الإشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنية، وعلى مدى توافر الحس الأمني لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأتت تحركاتهم منظمة، ومدروسة، فما أحوجنا لمثل هذا الحس، الذي كان عند الصحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الحضارات^(٢)، وأصبحت له مدارسه الخاصة، وتقنياته المتقدمة، وأساليبه ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة، والمعلومات الأمنية خاصة، تباع بأعلى الأثمان، ويضحى في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر. وما دام الأمر كذلك، فعلى المسلمين الاهتمام بالناحية الأمنية، حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم^(٣).

ح - صدق أبي ذر في البحث عن الحق، ورجاحة عقله وقوة فهمه: فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

ط - حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم، واهتمامه بأمن أصحابه وسلامتهم: حيث أمر أبا ذر بالرجوع إلى أهله، وكتمان أمره حتى يظهره الله.

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، د. يحيى يحيى (ص ٩١-٩٣).

(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم العلي (ص ٥٨، ٥٩).

(٣) انظر: دروس في الكتمان، محمود شيت خطاب (ص ٩).

- ي - شجاعة أبي ذر وقوته في الحق: فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش، ومجتمعاتهم تحدياً لهم وإظهاراً للحق^(١)، وكأنه فهم أن أمر النبي ﷺ بالكتمان ليس على الإيجاب، بل على سبيل الشفقة عليه، فأعلمه بأنه به قوة على ذلك، ولهذا أقره النبي ﷺ على ذلك، ويؤخذ منه جواز قول الحق عند من يخشى منه الأذية لمن قاله، وإن كان السكوت جائزاً، والتحقيق أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال والمقاصد، وبحسب ذلك يترتب وجود الأجر وعدمه^(٢).
- ك - كان موقف أبي ذر مفيداً للدعوة، وساهم في مقاومة الحرب النفسية التي شنتها قريش ضد الرسول ﷺ، وكانت ضربة معنوية أصابت كفار مكة في الصميم، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذر، وقدرته على التحمل، فقد سالت الدماء من جسده ثم عاد مرة أخرى للصدع بالشهادة.
- ل - مدافعة العباس عن المسلمين، وسعيه لتخليص أبي ذر من أذى قريش، دليل على تعاطفه مع المسلمين، وكان أسلوبه في رد الاعتداء يدل على خبرته بنفوس كفار مكة، حيث حذرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم، عندما تمر بديار غفار^(٣).
- م - امثل أبو ذر للترتيبات الأمنية، التي اتخذها رسول الله ﷺ في مكة، فمع تعلق أبي ذر بالرسول ﷺ، وحب له وحرصه على لقاءه، إلا أنه امثل أمر رسول الله ﷺ في مغادرة مكة إلى قومه، واهتم بصلاح وهداية الأهل، ودعوتهم للإسلام، فبدأ بأخيه، وأمه وقومه.
- ن - أثر أبي ذر الدعوي على قومه وقدرته على هدايتهم وإقناعهم بالإسلام، ومع ذلك فلا يصلح للإمارة، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»^(٤)، فكل شخص مجاله الذي سخره الله فيه، وميدانه الذي يقوم بواجبه فيه، فلا يعني أنه نجح في الدعوة وإقناع الناس أنه يصلح لكل شيء.
- س - تفويض أبي ذر الإمامة إلى سيد غفار (أيام بن رَحْضَة)، ومع تقدم أبي ذر عليه في الإسلام وعلو منزلته، يدل على مهارة إدارية، وهي عدم جمع كل الأعمال في يده، وتقدير الناس وإنزالهم منازلهم^(٥).

(١) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ٩٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/١٣٤).

(٣) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ٩٤، ٩٥).

(٤) مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة (٣/١٤٥٧ رقم ١٨٢٥).

(٥) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة (ص ١٠٠).

ع - نجاح أبي ذر الباهر في الدعوة: حيث أسلمت نصف غفار، وأسلم نصفها الثاني بعد الهجرة^(١).

لقد فشلت محاولات التشويه والحرب الإعلامية، والحجر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه على الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التبليغ، كانت أبلغ من وسائلهم، وثباته على مبدئه السامي، كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه، فالرسول ﷺ لم يجلس في بيته، ولم ينزو في زاوية من زوايا المسجد الحرام، ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه، فكان يخرج في مضارب العرب، قبل أن يقدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقية من حياة، وأثارة من حرية وإباء، فيتسرب نور الهدى إلى مجامع لبه، وسويداء قلبه^(٢)، وكان من هؤلاء ضمام الأزدي، وعمرو بن عَبَّسة، وأبو ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي، وحصين والد عمران بن الحصين رضي الله عنه، وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع على فشل حملات التشويه التي شنتها قريش ضد رسول الله ﷺ، فعلياً أن نعتبر ونستفيد من الدروس والعبر.

ثالثاً: ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله ﷺ، منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدل على ما مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تنزل عليه في هذه الفترة تأمره بالصبر، وتدله على وسائله، وتنهيه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المُزْمَل: الآية ١٠].

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مَثَمًا مَّائِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: الآية ٧٠].

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فُصِّلَتْ:

الآية ٤٣].

وهذه أمثلة تدل على ما تعرض له ﷺ من الإيذاء:

١ - قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه^(٣) بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال:

واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. قال:

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٤٥/١).

(٢) التاريخ الإسلامي للحمدي (١٤٤/١).

(٣) يعفر وجهه: أي يسجد ويلصق وجهه بالعرق وهو التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجعهم^(١) منه إلا وهو يَنكص على عقبه^(٢)، ويتقي بيديه. قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخذقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»^(٣).

وفي حديث ابن عباس قال: «كان النبي يصلي فجاء أبو جهل: فقال: ألم أنك عن هذا؟ ألم أنك عن هذا؟ ألم أنك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره^(٤)، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾^(٥) ﴿سَدَّعُ الزَّيْنَةَ﴾^(٦) ﴿[العلق: ١٧- ١٨]﴾ فقال ابن عباس: فوالله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله»^(٥).

٢ - وعن ابن مسعود: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به ثم يمهلها حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة - وهي جويرية - فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش». ثم سَمَى: «اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد»، قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب^(٦) - قليب بدر - ثم قال رسول الله ﷺ: «وأُتبع أصحاب القليب لعنة»^(٧).

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى، أن الذي رمى الرفث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرّضه هو أبو جهل^(٨)، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول، وشق عليهم الأمر، لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة^(٩).

(١) فَجَعَتْهُم بكسر الجيم، ويقال أيضًا فَجَأَهُم: بغتهم.

(٢) عقبه: رجع يمشي إلى الوراء.

(٣) مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب قوله: «إن الإنسان ليطغى» (رقم ٢٧٩٧).

(٤) زبره: نهره.

(٥) الترمذي (رقم ٣٣٤٩)، حسن صحيح غريب.

(٦) القليب: البئر المفتوحة.

(٧) البخاري واللفظ له (برقم ٥٢٠)، (فتح الباري ١/٥٩٤)، مسلم (٣/١٤١٨-١٤٢٠) ورقمه ١٠٧-١٧٩٤.

(٨) صحيح مسلم (٣/١٤٢٠).

(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/١٤٩).

٣ - اجتماع الملائكة من قريش وضربهم الرسول ﷺ: اجتمع أشرف قريش يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سقاه أحلامنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم! فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا - لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، ثم أخذ رجل منهم بمجمع رداءه، فقام أبو بكر رضي الله عنه، وهو يبكي، ويقول: «أقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله»^(١).

٤ - كان أبو لهب عم النبي ﷺ من أشد الناس عداوة له، وكذلك كانت امرأته أم جميل، من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه، فلا عجب أن نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد: ١ - ٥]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأيتك؟ فقال: «لقد أخذ الله ببصرها عني»، وكانت تنشد: مذمم أبيتنا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذمماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مُذَمِّمًا، ويلعنون مُذَمِّمًا وأنا محمد»^(٢).

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذبه^(٣).

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذية المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية^(٤)، وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريش قبل أن ينال الأذى أحدًا من أتباعه، يقول: «لقد أخفت في الله ﷻ وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»^(٥).

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي من طرق أخرى (ص ٩٦).

(٢) البخاري (ورقمه ٣٥٣٣)، (فتح الباري ٦ / ٥٥٤ - ٥٥٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٩٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٣).

(٥) سنن الترمذي (٤/ ٦٤٥) ورقمه (٢٤٧٢)، صححه الألباني - صحيح الجامع (٥٠٠١).

ومع ما له ﷺ من عظيم القدر، ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل، والعناء الطويل، منذ أول يوم صدع فيه بالدعوة، ولقد لقي النبي ﷺ من سفهاء قريش أذى كثيرًا، فكان إذا مر على مجالسهم بمكة استهزأوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة^(١)، يُكلم من السماء، وكان أحدهم يمر على الرسول ﷺ، فيقول له ساخرًا: أما كُلمت اليوم من السماء^(٢).

ولم يقتصر الأمر على مجرد السخرية والاستهزاء، والإيذاء النفسي، بل تعداه إلى الإيذاء البدني، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدو الله أمية بن خلف في وجه النبي ﷺ^(٣)، وحتى بعد هجرته ﷺ إلى المدينة لم تتوقف حدة الابتلاء والأذى، أخذت خطأ جديدًا، بظهور أعداء جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكة، صار له ﷺ أعداء من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود والفرس والروم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكة شتمًا وسخرية، وحصارًا، وضربًا، صار مواجهة عسكرية مسلحة، حامية الوطيس، فيها كرفر، وضرب وطعن؛ فكان ذلك بلاء في الأموال والأنفس على السواء^(٤)، وهكذا كانت فترة رسالته ﷺ وحياته سلسلة متصلة من المحن والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر، واحتسب حتى لقي ربه^(٥).

لقد واجه الرسول ﷺ من الفتن والأذى والمحن ما لا يخطر على بال، في مواقف متعددة، وكان ذلك على قدر الرسالة التي حُمِلها، ولذلك استحق المقام المحمود، والمنزلة الرفيعة عند ربه، وقد صبر على ما أصابه، إشفاقًا على قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم الماضية من العذاب، وليكون قدوة للدعاة والمصلحين^(٦). فإذا كان الاعتداء الأثيم، قد نال رسول الله ﷺ، فلم يعد هناك أحد - لكرامته - أكبر من الابتلاء والمحنة، وتلك سنة الله في الدعوات، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبيًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(٧).

(١) والد الرسول ﷺ من الرضاة.

(٢) الروض الأنف (٣٣/٢) وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه (٤٨/٢).

(٤) زاد اليقين لأبي شنب (ص ١٣٧).

(٥) التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٣).

(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان السويكت (ص ١٩٧).

(٧) ابن ماجه، باب الصبر على البلاء (رقم ٤٠٢٣). وقال الألباني: حسن صحيح (برقم ٤٠٩٥) في صحيح سنن ابن ماجه.

رابعًا: ما تعرض له أصحاب رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب:

١ - ما لاقاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

تحمل الصحابة رضوان الله عليهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرواسي الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشرف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أوزي أبو بكر رضي الله عنه، وحُثي على رأسه التراب، وضُرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحُمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت^(١)، فقد روت عائشة رضي الله عنها - أنه لَمَّا اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووُطِئ أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه، أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: والله مالي علم بصاحبك فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب، فاسألها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دَنَفًا، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟. قالت: في دار الأرقم، قال: فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتهما على رسول الله ﷺ فقال: فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس

(١) التمكين للامة الإسلامية (ص ٢٤٣).

بي بأسٍ إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت^(١).

دروس وعبر وفوائد:

أ - جِرْصُ أَبِي بَكْرٍ ﷺ عَلَى إِعْلَانِ الْإِسْلَامِ، وَإِظْهَارِهِ أَمَامَ الْكُفْرَانِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِهِ وَشَجَاعَتِهِ، وَقَدْ تَحَمَّلَ الْأَذَى الْعَظِيمَ، حَتَّى إِنْ قَوْمَهُ كَانُوا لَا يَشْكُونَ فِي مَوْتِهِ.

ب - مَدَى الْحُبِّ الَّذِي كَانَ يَكْنَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ إِنَّهُ - وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ الْحَرَجَةِ - يَسْأَلُ عَنْهُ، وَيُلْحِقُ الْإِحَاحَا عَجِيبًا فِي السُّؤَالِ، ثُمَّ يَحْلِفُ أَنْ لَا يَأْكُلُ، وَلَا يَشْرَبُ، حَتَّى يَرَاهُ، كَيْفَ يَتِمُّ ذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ بِلِ النَّهْوِضِ؟ وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي فِي اللَّهِ، وَالْعَزَائِمُ الَّتِي تَقْهَرُ الصَّعَابَ، وَكُلُّ مَصَابٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ أَجَلَ رَسُولَهُ ﷺ هَيِّنٌ وَيَسِيرٌ.

ج - إِنْ الْعَصْبِيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ، كَانَ لَهَا فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ دَوْرٌ فِي تَوْجِيهِ الْأَحْدَاثِ، وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْأَفْرَادِ، حَتَّى مَعَ اخْتِلَافِ الْعَقِيدَةِ، فَهَذِهِ قَبِيلَةُ أَبِي بَكْرٍ تَهْدُدُ بِقَتْلِ عْتَبَةَ إِنْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ^(٢).

د - الْحَسَنِ الْأَمْنِيِّ لَأَمِّ جَمِيلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَقَدْ بَرَزَ فِي عِدَّةِ تَصَرُّفَاتٍ لَعَلَّ مِنْ أَمَمِهَا:

* إِخْفَاءُ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَعْلُومَةِ عَنِ طَرِيقِ الْإِنْكَارِ:

عِنْدَمَا سَأَلَتْ أُمَّ الْخَيْرِ أُمَّ جَمِيلٍ عَنِ مَكَانِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنْكَرَتْ أَنَّهَا تَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، فَهَذَا تَصَرُّفٌ حَذَرٌ سَلِيمٌ، إِذْ لَمْ تَكُنْ أُمَّ الْخَيْرِ سَاعَتِيذٌ مُسْلِمَةً، وَأُمَّ جَمِيلٍ كَانَتْ تَخْفِي إِسْلَامَهَا، وَلَا تَوَدُّ أَنْ تَعْلَمَ بِهِ أُمَّ الْخَيْرِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ أَخْفَتْ عَنْهَا مَكَانَ الرَّسُولِ ﷺ مَخَافَةَ أَنْ تَكُونَ عَيْنًا لِقَرِيشٍ^(٣).

* اسْتِغْلَالُ الْمَوْقِفِ لِإِيصَالِ الْمَعْلُومَةِ:

فَأَمَّ جَمِيلٍ أَرَادَتْ أَنْ تَقُومَ بِإِيصَالِ الْمَعْلُومَةِ بِنَفْسِهَا لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ لَمْ تَظْهَرِ ذَلِكَ لِأُمَّ الْخَيْرِ، إِمْعَانًا فِي السَّرِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ، فَاسْتَغْلَتِ الْمَوْقِفَ لِمَصْلَحَتِهَا قَائِلَةً: «إِنْ كُنْتُ تَحْبِبِينَ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ إِلَى ابْنِكَ فَعَلْتُ» وَقَدْ عَرَضَتْ عَلَيْهَا هَذَا الطَّلِبَ بِطَرِيقَةٍ تَتِمُّ عَنِ الذِّكَاءِ، وَحَسَنِ التَّصَرُّفِ، فَقَوْلُهَا: «إِنْ كُنْتُ تَحْبِبِينَ» - وَهِيَ أُمُّهُ - وَقَوْلُهَا: «إِلَى ابْنِكَ» وَلَمْ تَقُلْ لَهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَحْرِكُ فِي أُمَّ الْخَيْرِ عَاطِفَةَ الْأُمُومَةِ، فَغَالِبًا مَا تَخْضَعُ لِهَذَا

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٩-٤٤١)، البداية والنهاية (٣/ ٣٠).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٧٩).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٥٠).

الطلب، وهذا ما تم بالفعل، حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتالي نجحت أم جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

* استغلال الموقف في كسب عطف أم أبي بكر:

يبدو أن أم جميل حاولت أن تكسب عطف أم الخير، فاستغلت وضع أبي بكر رضي الله عنه، الذي يظهر فيه صريحاً دَرَفًا، فأعلنت بالصياح، وسَبَّتْ من قام بهذا الفعل بقولها: «إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر» فلا شك أن هذا الموقف من أم جميل يشفي بعض غليل أم الخير، من الذين فعلوا ذلك بابنها، فقد تُكِرْنَ شيئًا من الحب لأم جميل، وبهذا تكون أم جميل كسبت عطف أم الخير، وثقتها، الأمر الذي يسهل مهمة أم جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكر رضي الله عنه ^(١).

* الاحتياط والتأني قبل النطق بالمعلومة:

لقد كانت أم جميل في غاية الحيطة والحذر، من أن تتسرب هذه المعلومة الخطيرة، عن مكان قائد الدعوة، فهي لم تطمئن بعد إلى أم الخير، لأنها ما زالت مشركة آنذاك، لم تأمن جانبها، لذا ترددت عندما سألتها أبو بكر رضي الله عنه، عن حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: هذه أمك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها، فأخبرته ساعتها بأن الرسول صلى الله عليه وسلم سالم صالح ^(٢)، وزيادة في الحيطة والحذر والتكتم، لم تخبره بمكانه إلا بعد أن سألها عنه قائلًا: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

* تخير الوقت المناسب لتنفيذ المهمة:

حين طلب أبو بكر رضي الله عنه الذهاب إلى دار الأرقم، لم تستجب له أم جميل على الفور، بل تأخرت عن الاستجابة، حتى إذا هدأت الرّجُل وسكن الناس، خرجت به ومعها أمه يتكئ عليهما، فهذا هو أنسب وقت للتحرك وتنفيذ هذه المهمة، حيث تنعدم الرقابة من قبل أعداء الدعوة، مما يقلل من فرض كشفها، وقد نفذت المهمة بالفعل دون أن يشعر بها الأعداء، حتى دخلت أم جميل وأم الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم، وهذا يؤكد أن الوقت المختار كان أنسب الأوقات ^(٣).

د - قانون المنحة بعد المحنة، حيث أسلمت أم الخير أم أبي بكر، بسبب رغبة الصديق في إدخال أمه إلى حظيرة الإسلام، وطلبه من الرسول صلى الله عليه وسلم الدعاء لها، لما رأى من برّها به،

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب المحذر والحماية (ص ٥١).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب المحذر والحماية (ص ٥٠-٥٢)، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدروس الأمنية.

وقد كان ﷺ حريصًا على هداية الناس الآخرين، فكيف بأقرب الناس إليه^(١).

هـ - إن من أكثر الصحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ، نظرًا لصحبته الخاصة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرض فيها للأذى من قومه، فينبري الصديق مدافعًا عنه وفادياً إياه بنفسه، فيصبيه من أذى القوم وسفهمهم، هذا مع أن الصديق يعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل والإحسان^(٢).

٢ - بلال ﷺ :

تضاعف أذى المشركين لرسول الله ﷺ ولأصحابه، حتى وصل إلى ذروة العنف، وخاصة في معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكلت بهم لتفتنهم عن عقيدتهم وإسلامهم، ولتجعلهم عبرة لغيرهم، ولتنفس عن حقدتها، وغضبها بما تصبه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فآلبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد اتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد»^(٣) لم يكن لبلال ﷺ ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تدود عنه، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهلي المكّي، يعادل رقمًا من الأرقام، فليس له دور في الحياة إلا أن يخدم ويطيع، ويباع ويشترى كالسائمة، أما أن يكون له رأي، أو يكون صاحب فكر، أو صاحب دعوة، أو صاحب قضية، فهذه جريمة شنعاء في المجتمع الجاهلي المكّي، تهز أركانه وتزلزل أقدامه، ولكن الدعوة الجديدة التي سارع لها الفتیان، وهم يتحدثون تقاليد وأعراف آبائهم الكبار، لامست قلب هذا العبد المرمي المنسي، فأخرجته إنساناً جديداً على الوجود^(٤)، فقد تفجرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن آمن بهذا الدين، وانضم إلى محمد ﷺ وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وهاهو الآن يتعرض للتعذيب من أجل عقيدته ودينه، فصد وزير رسول الله ﷺ الصديق، موقع التعذيب، وفاوض أمية بن خلف، وقال له: «ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى! قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى؛ فقال أبو بكر: أفعّل، عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى. على دينك أعطيكه به؛ قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك، وأخذته فأعتقه»^(٥) وفي رواية:

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكّي (ص ٧٩).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٥).

(٣) انظر: أحمد (١/٤٠٤) ورقمه (٣٨٣٢) بإسناد حسن.

(٤) انظر: التربية القيادية (١/١٣٦).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٩٤).

اشتراه بسبع أواق، أو بأربعين أوقية ذهباً^(١). ما أصبر بلالاً، وما أصلبه ﷺ، فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب، ولذلك صُلِبَ، ولم تَلُنْ قناته أمام التحديات، وأمام صنوف العذاب، وكان صبره، وثباته مما يغيظهم ويزيد حنقهم، خاصة أنه كان الرجل الوحيد من ضعفاء المسلمين، الذي ثبت على الإسلام، فلم يوات الكفار فيما يريدون، مردداً كلمة التوحيد بتحدٍ صارخ، وهانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه^(٢).

وبعد كل محنة منحة، فقد تخلص بلال من العذاب والنكال، وتخلص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله ﷺ بقية حياته ملازماً له، ومات راضياً عنه، مبشراً إياه بالجنة، فقد قال ﷺ لبلال: «... فَإِنِّي سَمِعْتُ خَشْفَ نَعْلِكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»^(٣).

وأما مقامه عند الصحابة، فقد كان عمر ﷺ يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» يعني بلالاً^(٤).

وأصبح منهج الصديق في فك رقاب المستضعفين، ضمن الخطة التي تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب، الذي نزل بالمستضعفين، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين، المنضمين إلى هذا الدين الجديد من الرق:

«... ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم؛ عامر بن فهيرة شهد بدرًا وأحدًا، وقُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأم غُبَيْس، وزُنَيْرَة وأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فردَّ الله بصرها» وأعتق التَّهْدِيَّة وبناتها، وكانت لامرأة من بني عبد الدار، فمرَّ بهما، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتقكما أبدًا، فقال أبو بكر ﷺ: جِلَّ^(٥) يا أم فلان فقالت: جِلَّ، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما، وهما حرتان، أزوجا إليها طحينها، قالتا: أو نَفْرُغْ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: وذلك إن شئتما^(٦).

وهنا وقفه تأمل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصديق، والجارتين حتى خاطبته، خطاب الند للند، لا خطاب المسود للسيد، وتقبل الصديق على شرفه وجلالته في الجاهلية والإسلام منهما ذلك، مع أن له يدًا عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجارتين حتى تخلقتا بهذا

(١) التربية القيادية (١/١٤٠).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي، (ص ٩٢).

(٣) صحيح مسلم (٢/١٩١٠) رقم الحديث (٢٤٥٨).

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٣٢) ورجاله ثقات.

(٥) حل: تحللي من يمينك.

(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٣).

الخلق الكريم، وكان يمكنهما وقد أعتقتا وتحررتا من الظلم، أن تدعا لها طحينها، يذهب أدرج الرياح، أو يأكله الحيوان والطير، ولكنهما أبنا - تفضلاً - إلا أن تفرغا منه، وترداه إليها^(١).

ومرّ الصديق بجارية بني مؤمل، حي من بني عدي بن كعب، وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها، لترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك، وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا عن ملالة فتقول: كذلك فعل الله بك، فابتاعها أبو بكر فأعتقها^(٢).

هكذا كان واهب الحريات، ومحرر العبيد، شيخ الإسلام الوقور، الذي عرف بين قومه بأنه يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نواب الحق، لم ينغمس في إثم في جاهليته، أليف مألوف، يسيل قلبه رقة ورحمة على الضعفاء، والأرقاء، أنفق جزءاً كبيراً من ماله، في شراء العبيد، وأعتقهم لله، وفي الله، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب^(٣).

كان المجتمع المكي يتندر بأبي بكر رضي الله عنه الذي يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين، أما في نظر الصديق، فهؤلاء إخوانه في الدين الجديد، فكل واحد من هؤلاء لا يساوي عنده مشركي الأرض وطغاتها، وبهذه العناصر وغيرها تُبنى دولة التوحيد، وتصنع حضارة الإسلام، الرائدة والرائعة^(٤)، ولم يكن الصديق يقصد بعمله هذا محمداً، ولا جاهاً، ولا دنيا، وإنما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، لقد قال له أبوه ذات يوم: «يا بُني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جُلُداً يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت إني إنما أريد ما أريد الله تعالى» فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصديق قرآناً يتلى إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِّيْرُهُ لِلْسَّرَى ۝ ٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَبَلَ وَاسْتَفْتَى ۝ ٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ ٩ فَسَنِّيْرُهُ لِلْعَسْرَى ۝ ١٠ وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝ ١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝ ١٣ فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَنْظُنَّ ۝ ١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ ١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ١٦ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَىٰ ۝ ١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ ١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ ٢٠ وَسَوْفَ يُرَىٰ ﴿٥﴾ [الليل: الآيات ٥ - ٢١].

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلامية الأولى قمة من قمم الخير والعطاء، وأصبح

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شعبة (١/٣٤٦).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شعبة (١/٣٤٥).

(٤) انظر: التربية القيادية (١/٣٤٢).

(٥) سيرة ابن هشام (١/٣١٩)، تفسير الألوسي (٣٠/١٥٢).

هؤلاء العبيد بالإسلام أصحاب عقيدة وفكرة، يناقشون بها وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكر رضي الله عنه على شرائهم ثم إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدين، ومدى تغلغله في نفسية الصديق رضي الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُخَيُّوا هذا المثل الرفيع، والمشاعر السامية، ليمت التلاحم والتعايش، والتعاقد بين أبناء الأمة، التي يتعرض أبناؤها للإباد الشاملة من قبل أعداء العقيدة والدين.

٣ - عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضي الله عنهم :

كان والد عمار ياسر من بني عنس من قبائل اليمن، قدم مكة وأخواه الحارث ومالك يطلبون أختاً لهم، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي^(١)، فزوجه أبو حذيفة أمة له يقال لها سُمَيَّة بنت خياط، فولدت له عمارة، فأعتقه أبو حذيفة الذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر وسمية وعمار، وأخوه عبد الله بن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً، صبوا عليهم العذاب صباً، كانوا يخرجونهم إذا حميت الظهرية فيعذبونهم برمضاء مكة^(٢)، ويقلبونهم ظهرًا لبطن^(٣)، فيمر عليهم الرسول ﷺ وهم يعذبون، فيقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^(٤)، وجاء أبو جهل إلى سمية فقال لها: ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحرية في ملمس العفة فقتلها، فهي أول شهيدة في الإسلام، رضي الله عنها^(٥)، وبذلك سطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ما تقدمه امرأة في سبيل الله، لتبقى كل امرأة مسلمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله، بعد أن جادت سمية بنت خياط بدمها في سبيل الله^(٦).

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: «أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيدي نتمشى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمار بن ياسر، فقال أبو عمار: يا رسول الله الدهر هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: اصبر، ثم قال: اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»^(٧)، ثم لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

(١) انظر: أسباب الأشراف للبلاذري (١/١٠٠، ١٥٧).

(٢) ابن هشام السيرة النبوية (٢/٦٨).

(٣) بهجة المحافل للعامري (١/٩٢).

(٤) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٩٧، ٩٨).

(٥) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٩٩).

(٦) التربية القيادية (١/٢١٧).

(٧) صحيح السيرة النبوية (ص ٩٨)، أورده الهيثمي في المجمع (٩/٢٩٣) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

لم يكن في وسع النبي ﷺ أن يقدم شيئاً لآل ياسر، رموز الفداء والتضحية، فليسوا بأرقاء حتى يشتريهم ويعتقهم، وليست لديه القوة ليستخلصهم من الأذى والعذاب، فكل ما يستطيعه ﷺ أن يزف لهم البشرى بالمغفرة والجنة، ويحثهم على الصبر؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوة للأجيال المتلاحقة، ويشهد الموكب المستمر على مدار التاريخ هذه الظاهرة «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»^(١).

أما عمار رضي الله عنه فقد عاش بعد أهله زمناً يكابد من صنوف العذاب ألواناً، فهو يُصنّف في طائفة المستضعفين، الذين لا عشائر لهم بمكة تحميهم، وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بمكة، أنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم، وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول^(٢)، ولما أخذه المشركون ليعذبوه لم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ قال: «ما وراءك؟» قال: شر، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال: «فإن عادوا فعد»^(٣)، ونزل الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمار، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ رَيْنٌ وَاللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [التحل: الآية ١٠٦] وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ^(٤).

وفي حادثتي بلال وعمار فقه عظيم يتراوح بين العزيمة والرخصة، يحتاج من الدعاة أن يستوعبوه، ويضعوه في إطاره الصحيح، وفي معاييره الدقيقة دون إفراط وتفريط.

٤ - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

تعرض للفتنة من قبل والدته الكافرة، فامتنعت عن الطعام والشراب، حتى يعود إلى دينها. قال ابن كثير: «قال الطبراني في كتاب العشرة أن سعداً، قال: أنزلت في هذه الآية: ﴿وإن جهداك على أن تترك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ [لقمان: الآية ١٥].»

وقال: كنت رجلاً بَرّاً بأمي، فلما أسلمتُ، قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعن دينك هذا، أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلني يا أمه فإنني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة أخرى لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك، قلت: يا أمه،

(١) التربية القيادية (١/٢١٧، ٢١٨).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٠).

(٣) انظر: فقه السيرة، الغزالي (ص ١٠٣).

(٤) المصدر نفسه.

تعلمين، والله، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلّي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»^(١).

وروى مسلم: أن أم سعد حلفت أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا أمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثاً حتى عُشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عُمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي [العنكبوت: ٨]﴾^(٢) وفيها ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: الآية ١٥].

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها بعضاً ثم أوجروها^(٣)، فمحنة سعد محنة عظيمة، وموقفه موقف فذ يدل على مدى تغلغل الإيمان في قلبه، وأنه لا يقبل فيه مساومة مهما كانت النتيجة^(٤).

ومن خلال تتبع القرآن المكي، نجد أنه رغم قطع الولاء، سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار، فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم، ومع ذلك فلا ولاء بينهم، لأن الولاء لله ورسوله ودينه والمؤمنين^(٥).

٥ - مصعب بن عمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

كان مصعب بن عمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانها، وكانت أمه مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال^(٦)، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبیت وَقَعْبُ الْحَيْسِ^(٧) عند رأسه،

(١) تفسير ابن كثير (٤٤٦/٣) عند الآية (١٥) من سورة لقمان، مع ملاحظة وجود حذف وإضافة في بعض ألفاظ الرواية في بعض الطباعات.

(٢) تعقيب: هكذا وردت ألفاظ الآية في صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، وفي شرح النووي على مسلم، ولم يتكلم عليها الإمام النووي؛ والصواب الموجود في القرآن هو أن نص الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [وهي الآية ٨ من العنكبوت] وكذلك نص الآية (١٤) من لقمان هو: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً وَأَمَّا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ والآية (١٥) التالية لها نصها: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فلا أدري كيف جاء هذا في رواية مسلم المذكورة. (المراجع).

(٣) صحيح مسلم (١٨٧٧/٢، ١٨٧٨) ورقم الحديث (٤٣، ٤٤- (١٧٤٨)]. وشجروا فاهها، وأوجروها، يعني: فتحوا فمها وصبوا فيه الطعام.

(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٦).

(٥) انظر: الولاء والبراء، محمد القحطاني (ص ١٧٤، ١٧٥).

(٦) الطبقات الكبرى (١١٦/٣).

(٧) القَعْبُ: القَدَحُ الغليظ، والحَيْسُ: تمر وأقِط وسمن تخلط وتعجن.

فإذا استيقظ من نومه أكل^(١)، ولما علم أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم، وصدق به، وخرج فكنتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً، فبصر به عثمان بن طلحة^(٢) يصلي فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وجسوه، فلم يزل محبوباً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى^(٣).

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: لقد رأيت جهداً شديداً حتى لقد رأيت جلده يتحشّف - أي يتطاير - تحشّف جلد الحية عنها، حتى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله مما به من الجهد^(٤)، وكان رسول الله ﷺ كلما ذكره، قال: «ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير»^(٥)، ومع كل ما أصابه ﷺ من بلاء ومحنة، ووهن في الجسم والقوة، وجفاء من أقرب الناس إليه، لم يقصر عن شيء مما بلغه أصحاب رسول الله ﷺ من الخير، والفضل، والجهاد في سبيل الله تعالى، حتى أكرمه الله تعالى بالشهادة يوم أحد^(٦).

يعتبر مصعب ﷺ نموذجاً من تربية الإسلام للمتربين الشباب، للمنعمين من أبناء الطبقات الغنية المرفهة، لأبناء القصور والمال والجاه، للمعجبين بأشخاصهم، المبالغين في تأنقهم، الساعين وراء مظاهر الحياة، كيف تغيرت؟ ووقف بعد إسلامه قوياً لا يضعف، ولا يتكاسل، ولا يتخاذل، ولا تقهره نفسه وشهوته، فيسقط في جحيم النعيم الخادع^(٧).

لقد ودع ماضيه بكل ما فيه من راحة ولذة، وهناءة، يوم دخل هذا الدين، وباع تلك البيعة، وكان لا بد له من المرور في درب المحنة، لكي يصقل إيمانه، ويتعمق يقينه، وكان مصعب مطمئناً راضياً، رغم ما حوله من جبروت ومخاوف، ورغم ما نزل به من البؤس والفقر والعذاب، ورغم ما فقدته من مظاهر النعم والراحة^(٨)، فقد تعرض لمحنة الفقر، ومحنة فقد الوجاهة، والمكانة عند أهله، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتعذيب، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن، فخرج من كل تلك المحن منتصراً بدينه وإيمانه، مطمئناً أعمق الاطمئنان، ثابتاً أقوى الثبات^(٩)، ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

(١) الروض الأنف (٢/١٩٥).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/١٠-١٢).

(٣) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٧).

(٤) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٩٣).

(٥) الطبقات الكبرى (٣/١١٦).

(٦) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١٠٨).

(٧) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد، محمد بريغش (ص ١٠٥).

(٨) انظر: مصعب بن عمير الداعية المجاهد، محمد بريغش (ص ١٠٥، ١٠٧).

(٩) المصدر السابق (ص ١٢٦).

٦- خُباب بن الأرت رضي الله عنه :

كان خباب رضي الله عنه قَيْنًا^(١) بمكة، وأراد الله له الهداية مبكرًا، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم^(٢)، فكان من المستضعفين الذين عذبوا بمكة لكي يرتد عن دينه، وصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحمأة حتى ذهب ماء مَنته^(٣).

وكان الرسول ﷺ يألف خبابًا، ويتردد عليه بعد أن أسلم، فلما علمت مولاته بذلك، وهي أم أنمار الخزاعية، أخذت حديدة قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خبابًا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «اللهم انصر خبابًا» فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقبل لها: اكتوي، فجاءت إلى خباب ليكويها فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر، ما أقرب فرج الله ونصره من عباده المؤمنين الصابرين، فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويها على رأسها^(٤)، ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ولقوا منهم شدة، جاء خباب إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول ﷺ وهو محمّر وجهه، فقال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمسَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(٥).

وللشيخ سلمان العودة حفظه الله تعليق لطيف على هذا الحديث: يا سبحان الله، ماذا جرى حتى احمر وجه المصطفى ﷺ، وقعد من ضجعتة؟ وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القوي المؤثر، ثم عاتبهم على الاستعجال؟

لأنهم طلبوا الدعاء منه ﷺ.

كلا: حاشاه من ذلك، وهو الرؤوف الرحيم بأمته.

إن أسلوب الطلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه، وأنه صادر من قلوب أمضاها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدتها البلوى، فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطئ النصر، فتستدعيه.

(١) قَيْنًا: حداثًا.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٧٩/٢).

(٣) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٩٥).

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٩٦).

(٥) البخاري، ك - المناقب، ب - علامات النبوة في الإسلام، ورقمه (٣٦١٢). ومواضع أخرى.

وهو ﷺ يعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها، وأسبابها، وأن قبل النصر البلاء، فالرسل تبثلى ثم تكون لها العاقبة.

﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: الآية ١١٠].

ويلمس ﷺ من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، برمهم بالعذاب الذي يلاقون، حتى يفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء - بمجرد قراءة النص - حقيقة الحال التي كانوا عليها حين طلبوا منه - عليه الصلاة والسلام - الدعاء والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات التي كانت تثور في نفوسهم إلا أن يعيش حالاً قريباً من حالهم ويعاني - في سبيل الله - بعض ما عانوا.

لقد كان ﷺ يريهم على:

أ - التأسى بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب - التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

ج - التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الذل والعصيان.

وَمَمَّةٌ أَمْرٌ آخِرٌ كَبِيرٌ، أَلَا وَهُوَ: أَنَّهُ ﷺ مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنهم، وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح فرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات، التي تعترض طريق الدعوة إلى الله^(١).

وقد تحدث خباب رضي الله عنه عن بعض ما كان يلقون من المشركين من عنت وسوء معاملة، ومساومة على الحقوق، حتى يعودوا إلى الكفر، قال: كنت رجلاً قتيلاً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا، والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إن متُّ ثم بُعثت جئتني، ولي ثم مالٌ وولد فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠]^(٢).

(١) انظر: الغرابة الأولون (ص ١٤٥، ١٤٦).

(٢) مسند أحمد (١١١/٥) ورقمه (٢١٠٧٥) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبابًا عما لقي في ذات الله تعالى، فكشف خباب عن ظهره، فإذا هو قد برص، فقال عمر: ما رأيت كالיום، فقال خباب: يا أمير المؤمنين لقد أوقدوا لي نارًا، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجلٌ رجُلَه على صدري فما اتقيت الأرض - أو قال: برد الأرض - إلا بظهري، وما أطفأ تلك النار إلا شحمي^(١).

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

كان منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملته للناس حكميًا، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطف وترفق، وكذلك الصبيان الصغار، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدثنا عن لقائه اللطيف برسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت غلامًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فقال: «يا غلام هل من لبن؟» قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «فهل من شاة لم يَنْزُ عليها فحل؟» فأتيته بشاة، فمسح ضرعها فنزل لبن فحله في إناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص، قال: ثم أتيت به بعد هذا فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «يرحمك الله فإنك غُلِيمٌ مُعَلَّمٌ»^(٢).

وهكذا كان مفتاح إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه «إني مؤتمن»، والثانية: كانت من المصدق، حيث قال له: «إنيك غُلِيمٌ مُعَلَّمٌ» ولقد كان لهاتين الكلمتين دور عظيم في حياته، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضوان الله عليهم، ودخل عبد الله في ركب الإيمان، وهويمخر بحار الشرك في قلعة الأصنام، فكان واحدًا من أولئك السابقين، الذين مدحهم الله في قرآنه العظيم^(٣)، قال عنه ابن حجر: «أحد السابقين الأولين، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، ولازم النبي صلى الله عليه وسلم وكان صاحب عليه»^(٤).

* أول من جهر بالقرآن الكريم:

بالرغم من أن ابن مسعود رضي الله عنه كان حليفًا وليس له عشيرة تحميه، ومع أنه كان ضئيل الجسم دقيق الساقين، فإن ذلك لم يحلّ دون ظهور شجاعته وقوة نفسه، رضي الله عنه، وله مواقف رائعة في ذلك، منها ذلك المشهد المثير في مكة، وإبان الدعوة وشدة وطأة قريش عليها، فلقد وقف على مَلَيْهِم وجهر بالقرآن، ففرغ به أسماعهم المقفلة وقلوبهم المغلّفة^(٥)، فكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. اجتمع يومًا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا

(١) الروض الأنف (٩٨/٢).

(٢) البداية والنهاية (٣٢/٣)، سير أعلام النبلاء (٤٦٥/١).

(٣) انظر: عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ (ص ٤٣).

(٤) الإصابة (٢١٤/٦).

(٥) انظر: عبد الله بن مسعود (ص ٤٥).

القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا! قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة، يمنعونه من القوم إن أرادوه! قال: دعوني فإن الله سيمعني! قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْيَسِيرَ﴾ - رافعاً بها صوته - ﴿الرَّحْمَنُ ۝ ١ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ ٢ ۝﴾ [الرَّحْمَنُ: ١ - ٢]، قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمّ عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد! فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً! قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتم ما يكرهون^(١).

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ، ولا غرو أن هذا العمل الذي قام به عبد الله يعتبر تحدياً عملياً لقريش التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التجربة على الرغم مما أصابه من أذى^(٢).

٨ - خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه :

كان إسلام خالد قديماً، لرؤيا رآها عند أول ظهور النبي ﷺ، إذ رأى كأنه وقف على شفير النار، وهناك من يدفعه فيها، والرسول يلتزمه لثلاثا يقع، ففزع من نومه، معتقداً أن هذه الرؤيا حق، فقصها على أبي بكر الصديق، فقال له: أريد بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفاً من أبيه، لكن أباه علم لثماً رأى كثرة تغيبه عنه، فبعث إخوته الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأتبه، وضربه بمقرعة، أو عصاً كانت في يده، حتى كسرهما على رأسه، ثم حبسه بمكة، ومنع إخوته من الكلام معه، وحذرهم من عمله، ثم ضيق عليه الخناق فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيام، وهو صابر محتسب، ثم قال له أبوه: والله لأمنعك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ. فكان يكرمه، ويكون معه، ثم رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرة الثانية^(٣).

٩ - عثمان بن مظعون رضي الله عنه :

لما أسلم عدا عليه قومه، بنو جمح، فأذوه، وكان أشدهم عليه، وأكثرهم إيذاءً له أمية بن خلف، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه^(٤):

(١) انظر: ابن هشام (١/٣١٤، ٣١٥)، أسد الغابة (٣/٣٨٥-٣٨٦).

(٢) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٨٨).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٦٠).

(٤) السيرة النبوية للذهبي (ص ١١٢).

وأخرجتني من بطن مكة آمنًا وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبالاً لا يواتيك ريشها وتبرى نبالاً ريشها لك أجمع
وحاربت أقواماً كراماً أعزة وأهلك أقواماً بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوماً مَلِمةً وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

وبقي عثمان بن مظعون فترة في الحبشة، لكنه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرة الأولى، ولم يستطع أن يدخل مكة إلا بجوار من الوليد بن المغيرة، حيث ظل يغدو في جواره آمناً مطمئناً، فلما رأى ما يصيب أصحاب النبي ﷺ من البلاء، وما هو فيه من العافية أنكر ذلك على نفسه، وقال: والله إن غدوي ورواحي آمنأ بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني، لنقص كبير في نفسي^(١)، فذهب إلى الوليد بن المغيرة وقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، فقال: لم يا ابن أخي؟ فلعلك أوديت، أو انتهكت، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليّ جوارِي علانية، كما أجزتكَ علانية، فانطلقا إلى المسجد فرد عليه جواره أمام الناس، ثم انصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قريش، فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة^(٢)، الشاعر ينشدهم، فقال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان: صدقت، واستمر لبيد في إنشاده فقال: «وكل نعيم لا محالة زائل»، فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فاخضرت، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي إن عينك لغنية عما أصابها، ولقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، ثم عرض عليه الوليد الجوار مرة أخرى فرفض^(٣).

وهذا يدل على مدى قوة إيمانه ﷺ، ورغبته في الأجر، والمثوبة عند الله، ولذلك لما مات رأت أم العلاء الأنصارية في المنام أن له عينًا تجري، فجاءت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «ذلك عمله»^(٤).

وغير ذلك من الصحابة الكرام تعرض للتعذيب، وهكذا نرى أولئك الرهط من الشباب القرشي، قد أقبلوا على دعوة الرسول ﷺ، واستجابوا لها، والتفروا حول صاحبها، على الرغم

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٢٠).

(٢) انظر: طبقات الشعراء لابن سلام (ص ٤٨، ٤٩).

(٣) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٧٨-١٨٠).

(٤) البخاري (٤/٢٦٥) ورقمه (٧٠٠٤).

من مواقف آبائهم وذويهم، وأقربائهم المتشددة تجاههم، فضحوا بكل ماكانوا يتمتعون به من امتيازات، قبل دخولهم في الإسلام، وتعرضوا للفتنة، رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب، وتحملوا أذى كثيرًا، وهذا فعل الإيمان في النفوس، عندما يخالطها فتستهيئ بكل ما يصيبها من عنت، وحرمان، إذا كان ذلك يؤدي إلى الفوز برضا الله تعالى وجنته.

هذا، ولم يكن التعذيب والأذى مقصورًا على رجال المسلمين دون نساءهم، وإنما طال النساء أيضًا قسط كبير من الأذى والعنت، بسبب إسلامهنّ كسميّة بنت خياط، وفاطمة بنت الخطاب، وليبية جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنّهديّة وابنتها، وأمّ عُبيس، وحمّامة أم بلال وغيرهنّ^(١).

خامسًا: حكمة الكف عن القتال في مكة، واهتمام النبي ﷺ بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدفاع عن أنفسهم، ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم، وخاصة الشباب منهم، وقد أتى عبد الرحمن بن عوف وأصحابه إلى النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنّا صرنا أذلة، قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»^(٢) وتعرض بعض الباحثين للحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة، ومن هؤلاء الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقد قال: لا نجزم بما نتوصل إليه، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض أسبابًا وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق، لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد، وعلى أنه مجرد احتمال، لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح^(٣) ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجاز:

١ - أن الكف عن القتال في مكة، ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر، على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه، أو على من يلوذون به: ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد، بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفًا

(١) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ١١٦، ١١٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٥٨).

(٣) الظلال (٢/٧١٤).

- لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).
- ٢ - وربما كان ذلك أيضًا، لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيثة قريش، ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتل معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية جديدة، كثرات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحيثُذ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات، تنسى معها فكرته الأساسية.
- ٣ - وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة، داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيثة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته؛ فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟
- ٤ - وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله، من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟
- ٥ - وربما كان ذلك أيضًا؛ لأن النخوة العربية في بيثة قبلية، من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيثة؛ فابن الدُّغَّة^(١) لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.
- ٦ - وربما كان ذلك أيضًا لقلّة عدد المسلمين حينئذٍ، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت، ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقوف، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة، ونظام دنيا وآخرة.
- ٧ - إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع

(١) ابن الدُّغَّة: رجل جاهلي أجاز أبا بكر عندما أخرجه قومه وأراد الهجرة إلى الحبشة، انظر: الإصابة (٢)

الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً ومحققاً وهو (وجود الدعوة)، ووجودها في شخص الداعية محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع، ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة، وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله.

إن هذه الاعتبارات كلها - فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله - معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ، لتكون خالصة وفي سبيل الله^(١).

وقد تعلم الصحابة من القرآن الكريم، فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨].

وهكذا تعلم الصحابة ﷺ، أن المصلحة إن أدت إلى مفسدة أعظم تترك^(٢)، وفي هذا تهذيب أخلاقي، وسمو إيماني، وترفع عن مجارة السفهاء الذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه، وقد ذكر العلماء أن الحكم باقي في الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله ﷻ، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم، ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه فعل بمنزلة التحريض على المعصية، وهذا نوع من الموادة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع^(٣).

والناظر في الفترة المكية، والتي كانت ثلاثة عشر عاماً كلها في تربية وإعداد، وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله، يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال، واستباق الزمن، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة، بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب، وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة، وقفة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية أيًا كانت قديمة أو حديثة أم مستقبلية، إلا رجال اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية،

(١) الولاء والبراء، محمد القحطاني، لخص نقاطاً من الظلال (ص ١٦٩ - ١٧١) وفي ظلال القرآن (٢/ ٧١٤ -

٧١٥)، وفي معالم في الطريق (ص ٦٩ - ٧١).

(٢) انظر: التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٣٢٥).

(٣) المصدر السابق نفسه (٧/ ٣٢٦).

وتعمقت جذور شجرة التوحيد في نفوسهم^(١).

كان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بضبط النفس، والتحلي بالصبر، وكان يربي أصحابه على عينه، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة، وقد نزلت الآيات في المرحلة المكية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْزُوقُ ① قُرِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② يَضَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٤]، فقد أرشدت سورة المزمل الصحابة إلى حاجة الدعوة إلى قيام الليل، والدوام على الذكر، والتوكل على الله، في جميع الأمور، وضرورة الصبر، ومع الصبر الهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصالحة.

كانت الآيات الأولى من سورة المزمل تأمر النبي ﷺ أن يخصص شطرًا من الليل للصلاة، وقد خيره الله تعالى أن يقوم للصلاة نصف الليل، أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فقام النبي ﷺ، وأصحابه معه قريبًا من عام، حتى ورمت أقدامهم، فنزل التخفيف عنهم، بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه، فرحمهم ربهم، فخفف عنهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُهُمْ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَبَاتَ عَلَيْكَ قَائِمًا وَمَا تَبَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضِيًّا وَمَا كَانُوا يَصْرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَائِمًا وَمَا تَبَسَّرَ مِنْهُ وَأَيُّمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ مِّجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ هُمْ بِأَفْئِسَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ مِن قَبْلِ ذَلِكَ هُم مِّنكُمْ فَغَفَرَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

كان امتحانهم في الفرش، ومقاومة النوم، ومألوفات النفس، لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس، تمهيدًا لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، إذ لا بد من إعداد روعي عال لهم، وقد اختارهم الله لحمل رسالته، واثمنهم على دعوته، واتخذ منهم شهداء على الناس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة الناس إلى التوحيد، وتخليصهم من الشرك، وهي مهمة عظيمة يقدر على تنفيذها أولئك الذين: ﴿سَتَجِدُنِي جُنُودَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: الآية ١٦] وقد وصف الله قيام الليل، والصلاة فيه، وقراءة القرآن ترتيلًا - أي مع البيان والتؤدة - بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: الآية ٦] فهو أثبت أثرًا في النفس، مع سكون الليل، وهدأة الخلق، حيث تخلو من شواغلها وتفرغ للذكر والمناجاة، بعيدًا عن علائق الدنيا، وشواغل النهار، وبذلك يتحقق الاستعداد اللازم لتلقي الوحي الإلهي: ﴿إِنَّا سَلَقْنَاكَ قَوْلًا نُّفِيًّا﴾ [المزمل: الآية ٥] والقول الثقيل هو القرآن الكريم، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدقيق للمسلمين الأوائل في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد، وإنشاء الدولة بالمدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا الناس، ونشره بين العالمين^(٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٦٠).

(١) انظر: الولاء والبراء (ص ١٧١).

لقد كان النبي ﷺ مهتمًا بجبهته الداخلية، وحريصًا على تعبئة أصحابه بالعقيدة القوية، التي لا تتزعزع ولا تلين، وكان هذا مبعثًا لروح معنوية مرتفعة وقوية، للدفاع وتحمل العذاب والأذى في سبيل الدعوة، وأصبحت الجماعة الأولى وحدة متماسكة، لا تؤثر فيها حملات العدو النفسية، ولا تجد لها مكانًا في هذه الجماعة، عن طريق المؤاخاة بين المسلمين، فقد أصبحت رابطة الأخوة في الله تزيد على رابطة الدم والنسب، وتفضلها في الدين الإسلامي، وتعايش الرعيل الأول بمعاني الأخوة الرفيعة، القائمة على الحب والمودة والإيثار، وكانت أحاديث رسول الله ﷺ تفعل فعلها في نفوس الصحابة، فكان ﷺ يحث المسلمين على الأخوة والترابط، والتعاون، وتفريج الكرب، لا لشيء إلا لرضا الله سبحانه، لا نظير خدمة مقابلة أو نحو ذلك، وإنما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده، وهذه المبادئ هي سر استمرار الأخوة الإسلامية، وتماسك المجتمع الإسلامي^(١)، وبَيَّن لهم الرسول ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: «المتحابون في جلالي، لهم من نور يغطهم النبيون والشهداء»^(٢).

وهكذا أصبحت الأخوة الصادقة من مقاييس الأعمال، وأصبحت المحبة في الله من أفضل الأعمال، ولها أفضل الدرجات عند الله، وحذر الرسول ﷺ المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرابطة، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها، فقال لهم: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا»^(٣).

واستعان النبي ﷺ في ربط المجتمع الداخلي، وتوحيد جبهته لتكون قوية في مواجهة الحرب النفسية الموجهة ضدها، بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة وإعطائهم الحرية، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرية، ثم كانت لهم في داخله حرية الرأي، وحرية التعبير، والمشورة، أتى محمد ﷺ بمبدأ المساواة بين جميع الناس، الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، وبين جميع الطبقات، وقد كان لهذا المبدأ العظيم، أكبر الأثر في نفوس أتباع النبي ﷺ وجعلهم يتحابون ويتماسكون ويفتدون بأرواحهم، ويدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة، فهو ﷺ لم يقر تفاوتًا بين البشر، بسبب مولد أو أصل، أو حسب أو نسب، أو وراثة، أو لون. والاختلاف في الأنساب والأجناس والألوان، لا يؤدي إلى اختلاف في الحقوق والواجبات، أو العبادات، فالكل أمام الله سواسية، وعندما طلب أشرف مكة من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس العبيد والضعفاء، حتى لا يضمهم وإياهم مجلس واحد، بيَّن الرسول ﷺ أن جميع الناس متساوون في تلقي الوحي والهداية، ورفض

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي وصححه، كتاب الزهد (٤/٥١٥) رقم (٢٣٩٠).

(٣) البخاري، كتاب الأدب (٧/١٩٩- رقم ٦٠٧٦).

كفار مكة وساداتها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد، ومن يعتبرونهم ضعفاء، أذلاء من أتباع محمد ﷺ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَنَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝ ٢٨ ﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِن سُرَادِقِهَا وَإِن يَسْتَيْسِرُوا يَئَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿ [الكهف: ٢٨، ٢٩] ، بل إن النبي ﷺ لما أعرض عن ابن أم مكتوم الأعمى، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف، عاتبه الله أشد العتاب.

وكان من أكبر أساليب النبي ﷺ في ربطه المجتمع الإسلامي وتوحيده، وتقويته للجهة الداخلية وجعلها قوية البنيان متماسكة، ما دعا إليه ﷺ من التكافل المادي والمعنوي بين المسلمين، ليعين منهم القوي الضعيف، وليعطف الغني على الفقير، ولم يترك ﷺ ثغرة واحدة، تنفذ منها الحرب النفسية إلى هذا الصف الإسلامي الأول، وأصبحت الجماعة الأولى صخرة عظيمة تحطمت عليها كل الجهود والخطط التي بذلها زعماء مكة للقضاء على الدعوة^(١).

سادساً: أثر القرآن الكريم في رفع معنويات الصحابة:

كان للقرآن الكريم أثر عظيم في شد أزر المؤمنين، من جانب، وتوعده الكفار بالعذاب من جانب آخر، مما كان له وقع القنابل على نفوسهم، وقد كان دفاع القرآن الكريم عن الصحابة يتمثل في نقطتين:

الأولى: حث الرسول ﷺ على رعايتهم، وحسن مجالستهم، واستقبالهم، ومعاتبته على بعض المواقف، التي ترك فيها بعض الصحابة، لانشغاله بأمر الدعوة أيضاً.

الثانية: التخفيف عن الصحابة بضرب الأمثلة والقصاص لهم، من الأمم السابقة، وأنبيائها، وكيف لاقوا من قومهم الأذى والعذاب، ليصبروا ويستخفوا بما يلاقون، وأيضاً بمدح بعض تصرفاتهم، ثم بوعدهم بالثواب والنعيم المقيم في الجنة، وكذلك بالتنديد بأعدائهم الذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى^(٢).

أما النقطة الأولى: حينما كان النبي ﷺ يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه: خباب وعمار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب وأشباههم، فكانت قریش تهزأ بهم، وقال الكفار بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، ثم يقولون: هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا^(٣).

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ١٢٥-١٤٠).

(٢) الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ٢٦٩).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٧٠، ٢٧١).

ورد الله سبحانه وتعالى على استهزاء هؤلاء الكفار مبيّنًا لهم أن رضا الله لبعض عباده، لا يتوقف على منزلته، ولا مكانته بين الناس في الدنيا، كما يؤكد لرسوله ﷺ هذا المفهوم، حتى لا يتأثر بما يقوله الكفار، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصحابة، ومبيّنًا له أيضًا مكانتهم، فيقول: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَتَّبِعُوا آهْوَاءَ مَنْ آثَرَهُمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: الآيات ٥٢ - ٥٤].

وهكذا بيّن الله لرسوله شأن هؤلاء الصحابة، وقيمتهم ومنزلتهم التي يجهلها، أو يتجاهلها الكفار، ويحاولون أن ينالوا منها، بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرسول عن طردهم، كما يأمره بحسن تحيتهم، ويأمره أيضًا أن يشرهم بأن الله سبحانه قد وعد بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الروح المعنوية لهؤلاء، كيف يجدون الأذى من الكفار بعد ذلك، إنهم يفرحون بهذا الأذى الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة^(١).

ثم نرى عتاب الله لرسوله ﷺ في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا العتاب في شأن رجل فقير أعمى من الصحابة، أعرض عنه الرسول ﷺ مرة واحدة ولم يجبه على سؤاله، لانشغاله بدعوة بعض أشرف مكة^(٢).

فنزل قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ يَذْكُرُ ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مَنْ أَسْتَفَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ﴿٧﴾ وَأَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْفَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ لِلَّهِ ﴿عَبَسَ﴾: الآيات ١ - ١٠].

إنه لا مجال للامتيازات في دعوة الحق، بسبب الحسب والنسب، أو المال والجاه، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان، وبيان وحدة الأصل، وما تقتضيه من المساواة والتكافؤ. من هنا يمكن تحليل شدة أسلوب العتاب الذي وجهه الله تعالى لرسوله للاهتمام الكبير الذي أظهره لأبي بن خلف، على حساب استقباله لابن أم مكتوم الضعيف ﷺ، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على البلايين من أمثال أبي بن خلف^(٣) لعنه الله.

وكانت لهذه القصة دروس وعبر، استفاد منها الرعيل الأول، ومن جاء بعدهم المسلمين، ومن أهم هذه الدروس الإقبال على المؤمنين؛ فعلى الدعاة البلاغ، وليس عليهم

(١) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام (ص ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧١).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٦٧) مع تصرف في العدد بدل مئة بلايين.

الهداية، في قصة الأعمى دليل على نبوة محمد ﷺ، فلو لم يكن نبينا محمد ﷺ رسول الله، لكتّم هذه الحادثة، ولم يخبر الناس بها، لما فيها من عتاب له ﷺ، ولو كان كاتمًا شيئًا من الوحي لكتّم هذه الآيات، وآيات قصة زيد، وزينب بنت جحش^(١) فعلى الدعاة تقديم أهل الخير والإيمان^(٢).

أما النقطة الثانية في دفاع القرآن الكريم عن الصحابة، فقد كانت بالتخفيف عنهم، وكانت أهم وسائل التخفيف بإظهار أن هذا الأذى الذي يلقونه لم يكن فريدًا من نوعه، وإنما حدث قبل ذلك مثله وأشد منه، كانت القصص التي تتحدث عن حياة الرسل في القرآن الكريم، من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﷺ، تبيّنًا للمسلمين، ولروح التضحية، والصبر فيهم من أجل الدين، وبينت لهم القدوة الحسنة، التي كانت في العصور القديمة من أنجح الوسائل في ميادين الإعلام والتربية والتعليم، والعلاقات العامة، فالقصص القرآني يحوي الكثير من العبر والحكم والأمثال.

كان أيضًا من أساليب القرآن في تخفيفه عن الصحابة، والدفاع عنهم أسلوبه في مدحهم، ومدح أعمالهم في القرآن الكريم، يقرأها الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما حدث مع الصديق لما أعتق سبع رقاب من الصحابة لينقذهم من الأذى والتعذيب، في الوقت نفسه الذي يندد فيه بأمية بن خلف الذي كان يعذب بلال بن رباح، فالقرآن بدستوره الأخلاقي، قد قدم قواعد الثواب والعقاب، وشجع المؤمنين وحذر المخالفين، وحمل هذا التنديد مغزى عميقًا، فقد أثار الطريق للصحابة، وكان غمة وكربًا على نفوس الكفار المترددين، إذ جاء قول الله تعالى:

﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ ۖ لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا قَتَلُوا ۚ وَتَوَلَّىٰ ۖ وَسِجِّينَ ۗ الْأَلْفَىٰ ۗ وَالَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۗ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَىٰ ۙ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۗ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: الآيات ١٤ - ٢١].

وكذلك خلد القرآن ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام، رغم استهزاء الكفار ومحاولاتهم لصدّهم عن الإسلام، لذا نزلت فيهم بعض الآيات كما يذكر بعض المؤرخين^(٣)، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۗ وَإِذَا يُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۗ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

(١) تفسير ابن عطية (٣١٦/١٥)، القاسمي (٥٤/١٧).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن، د. عبد الكريم زيدان (٨٩/٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٤/٢).

أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك - الباه - فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم! فقال رسول الله: ﴿حَمْرٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ ﴿كَنْتُمْ فَفُضِّلْتُمْ وَأَنْتُمْ قُرَبَانَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾ ﴿فُضِّلْتُمْ: ١-٣﴾ إِلَى أَنْ بَلَغَ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿فُضِّلْتُمْ: ١٣﴾ فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم^(١). وفي رواية ابن إسحاق: فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. . يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم^(٢).

دروس وعبر وفوائد:

- أ - لم يدخل رسول الله في معركة جانبية، حول أفضليته على أبيه وجده، أو أفضليتهما عليه، ولو فعل ذلك لقصي الأمر دون أن يسمع عتبة شيئاً.
- ب - لم يخض ﷺ معركة جانبية حول العروض المغربية، وغضبه الشخصي لهذا الاتهام، إنما ترك ذلك كله لهدف أبعد، وترك عتبة يعرض كل ما عنده، وبلغ من أدبه ﷺ أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» فقال: نعم^(٣).
- ج - كان جواب رسول الله ﷺ حاسماً، إن اختياره لهذه الآيات للدليل على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسية كان منها: إن هذا القرآن تنزيل من الله، بيان موقف الكافرين وإعراضهم، بيان مهمة الرسول، وأنه بشر، بيان أن الخالق واحد هو الله، وأنه خالق السماوات والأرض، بيان تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وإنذار قريش صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود^(٤).
- د - خطورة المال، والجاه، والنساء على الدعاة، فكم من الدعاة سقط على الطريق تحت بريق المال، وكم عرضت الآلاف من الأموال على الدعاة ليكفوا عن دعوتهم، والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنبي ﷺ، وخطورة الجاه واضحة، لأن الشيطان في هذا المجال يزين ويغوي بطرق أكبر، وأمكر، وأفجر. والداعية الرباني هو الذي يتأسى برسول الله ﷺ

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦٨، ٦٩).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٩٤).

(٣) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان (ص ٣٣).

(٤) انظر: معين السيرة للشامي (ص ٧٥).

في حركته وأقواله وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذي عاش له ويموت من أجله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١١٢) لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١١٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وأما النساء فقد قال ﷺ: «ماتركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء»^(١) سواء كانت زوجة تثبط الهمة عن الدعوة والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه ليسقطنه في شباكهن، أو في تهينة أجواء البغي والإثم والمجون، ليرتادها بعد خطوة، أيًا كانت فإنها فتنة عظيمة في الدين، فها هي قريش تعرض على رسول الله ﷺ نساءها يختار عشرا منها، أجملهن وأحسنهن، يكن زوجات له إن كان عاجزا عن الزواج من أكثر من واحدة، إن خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشد من خطر السيف المصلت على الرقاب^(٢)، فعلى الدعوة أن يقتدوا بسيد الخلق، ويتذكروا دائما قول يوسف ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ أَلَسَبْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٤].

هـ - تأثر عتبة من موقف النبي ﷺ، وكان هذا التأثير واضحا لدرجة أن أصحابه أقسموا على ذلك التأثير قبل أن يخبرهم، فبعد أن كان العدو ينوي القضاء على الدعوة، إذا به يدعو لعكس ذلك، فيطلب من قريش أن تخلي بين محمد ﷺ وما يريد^(٣).

و - استمع الصحابة لما حدث بين النبي ﷺ وبين عتبة، وكيف رفض حبسهم ﷺ كل عروضه المغرية، فكان ذلك درسا تربويا خالط أحشاءهم، تعلموا منه الثبات على المبدأ، والتمسك بالعقيدة، ووضع المغريات تحت أقدام الدعوة.

ز - تعلم الصحابة من الرسول الكريم ﷺ الحلم ورحابة الصدر، فقد استمع ﷺ إلى ترهات عتبة بن ربيعة، ونيله منه، وقوله عنه: «إن في قريش ساحرا» و«إن في قريش كاهنا»، «ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك» و«إن كان بك زئي من الجن» فقد أعرض عنه ﷺ، وأغض عن هذا السباب، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته وتبليغه إياها، لسيد بني عبد شمس، فقد كانت كل كلمة تصدر من سيد الخلق ﷺ مبدأ يحتذى، وكل تصرف دينيا يتبع، وكل إغضاء خلقا يتأسى به^(٤).

وذكرت بعض كتب السيرة أن قيادات مكة دخلوا في مفاوضات بعد ذلك مع رسول الله ﷺ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشرية، ممن أراد الدنيا، وطمع

(١) صحيح الجامع الصغير (١٣٨/٥) ورقمه (٥٤٧٣).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٦٩).

(٣) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٨٧).

(٤) انظر: التربية القيادية (١/٣٠٤).

في مغانمها، إلا أن رسول الله ﷺ اتخذ موقفًا حاسمًا في وجه الباطل، دون مراوغة أو مهادنة، أو دخول في دهاء سياسي، أو محاولة وجود رابطة استعطف، أو استلطاف مع زعماء قريش^(١)، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصرحة والبيان، بعيدة عن المهادنة والتنازل، ولذلك رد رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ^(٢).

بهذا الموقف الإيماني الثابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية، وهي خلوص العقيدة من أي شائبة غريبة عنها، سواء في جوهرها، أو في الوسيلة الموصلة إليها^(٣).

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين، واستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل، ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم، من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، فأرسلوا إلى النبي ﷺ الأسود بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: «يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه»^(٤) فأنزل الله فيهم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون].

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها، في إعلان البراء من الكفر وأهله، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: الآية ٤١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِيَّايُ حُيِّتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَّا أُتْبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ

(١) انظر: الوفود في العهد المكي، لعلي الأسطل (ص ٣٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢٩٥/١، ٢٩٦)، التربية القيادية (٣٠٥/١).

(٣) تاريخ صدر الإسلام، عبد الرحمن الشجاع (ص ٣٩).

(٤) ابن هشام (٣٦٢/١).

إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْتَلُونَ بِهِ
 إِن الْحُكْمُ لِلَّهِ يُقْضَىٰ الْحَقُّ وَهُوَ سَعِيدٌ الْفَصِيلِينَ ﴿٥٧﴾ [الأنعام: الآيتان ٥٦، ٥٧].

ولقد بينت سورة الكافرون أن طريق الحق واحد، لا عوج فيه، ولا فجاج له، إنه العبادة الخالصة لله وحده رب العالمين، فنزلت هذه السورة على الرسول ﷺ للمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهرى كامل، يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج إلى مدهانة، أو مراوغة. نعم فالأمر هنا ليس مصلحة ذاتية، ولا رغبة عابرة، ولا سماً في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدعي المنافقون، والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، والملحدون أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسماً على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسطاً، ولا ترضيات شخصية؛ فإن الجاهلية جاهلية والإسلام إسلام، ففي كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته عبادة وحكماً، وإلا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان ﴿لَكُرْ دِيكُورٌ وَلِي دِينَ﴾^(١).

وجاء وفد آخر بعد فشل الوفد السابق، يتكون من: عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومُكْرَز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر^(٢)، جاء ليقدم عرضاً آخر للتنازل عن بعض مافي القرآن، فطلبوا من النبي ﷺ أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهم فأنزل الله جواباً حاسماً، قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتُمْ بِشِرْكِكُمْ أَوْ هَذَا أَوْ بَدَّلْتُمْ
 قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي بِغَيْرِ قِسْمٍ إِن أَتَيْتُمُونِي إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِن عَصَيْتُ رَبِّي
 عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: الآية ١٥].

وهذه الوفود والمفاوضات تبين مدى الفشل الذي أصاب زعماء قريش، في عدم حصولها على التنازل الكلي عن الإسلام، الأمر الذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيء من التنازل، ويلاحظ أن التنازل الذي طلبوه في المرة الأولى، أكبر مما طلبوه في المرة الثانية، وهذا يدل على تدرجهم في التنازل من الأكبر إلى الأصغر عليهم يجدون آذاناً صاغية لدى قائد الدعوة، كما أنهم كانوا يغيرون الأشخاص المتفاوضين، فالذين تفاوضوا مع الرسول ﷺ في المرة الأولى، غير الذين تفاوضوا معه في المرة الثانية ما خلا الوليد بن المغيرة، وذلك حتى

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/٣٩٩١) بتصرف كبير.

(٢) أسباب النزول للواحي (ص ٢٠٠)، ونور اليقين للخضري (ص ٦١) بتصرف.

لا تتكرر الوجوه، وفي الوقت ذاته تنوع الكفاءات، والعقول المفاوضة، فربما أثر ذلك في نظرهم بعض الشيء، وفي هذا درس للدعاة إلى يوم القيامة أن لا تنازل عن الإسلام، ولو كان هذا التنازل شيئاً يسيراً، فالإسلام دعوة ربانية، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقاً، مهما كانت الأسباب، والدوافع، والمبررات، وعلى الدعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض، والإغراءات المادية، التي قد لا تعرض بطريق مباشر، فقد تأخذ شكلاً غير مباشر، في شكل وظائف عليا أو عقود عمل مجزية، أو صفقات تجارية مربحة، وهذا ما تخطط له المؤسسات العالمية المشبوهة، لصرف الدعاة عن دعوتهم وبخاصة القياديون منهم، وهناك تعاون تام في تبادل المعلومات، بين هذه المؤسسات التي تعمل من مواقع متعددة لتدمير العالم الإسلامي^(١) ولقد جاء في التقرير الذي قدمه «ريتشارد ب. ميشيل» أحد كبار العاملين في مجال الشرق الأوسط، لرصد الصحوة الإسلامية، وتقديم النصح بكيفية ضربها، جاء في هذا التقرير، وضع تصور لخطة جديدة يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلامية، فكان من بين فقرات هذا التقرير فقرة خاصة بإغراء قيادات الدعوة، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء، مايلي:

أ - تعيين من يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا، حيث يتم شغلهم بالمشروعات الإسلامية فارغة المضمون، وغيرها من الأعمال التي تستنفد جهودهم، وذلك مع الإغداق عليهم أدبياً ومادياً، وتقديم تسهيلات كبيرة لذويهم، وبذلك يتم استهلاكهم محلياً، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيرية.

ب - العمل على جذب ذوي الميول التجارية والاقتصادية، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة، التي تقام في المنطقة العربية لمصالح أعدائها.

ج - العمل على إيجاد فرص عمل، وعقود مجزية في البلاد العربية الغنية، الأمر الذي يؤدي إلى بُعدهم عن النشاط الإسلامي^(٢).

فالمتدبر في النقاط الثلاث السابقة يلاحظ أنها إغراءات مادية غير مباشرة، وبنظرة فاحصة للعالم الإسلامي اليوم نلاحظ أن هذه النقاط تنفذ بكل هدوء، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدعاة، واستهلكت بعض الدول العربية الغنية جماً غفيراً من الدعاة، وألهمت التجارة بعضهم^(٣).

ثامناً: أسلوب المجادلة ومحاولة التعجيز:

كان النبي ﷺ قد أقام الحجج والبراهين والأدلة على صحة دعوته، وكان ﷺ يتقن اختيار الأوقات، وانهاز الفرص والمناسبات، ويقوى على الرد على الشبهات، مهما كان نوعها، وقد

(١) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ٨٩).

(٢) مجلة المجتمع الكويتية، عدد رقم ٤٢٨، ١٧ صفر ١٣٩٩هـ. نقلاً عن: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية.

(٣) انظر: في السيرة النبوية لجوانب الحذر والحماية (ص ٩١).

استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرة، استنبطها من كتاب الله تعالى في إقامة الحجة العقلية، واستخدام الأقيسة المنطقية، واستحضار التفكير والتأمل، ومن الأساليب التي استخدمها ﷺ مع كفار مكة:

١ - أسلوب المقارنة:

وذلك يعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل، للتفكير في كلا الأمرين، وعاقبتهما للوصول - بعد المقارنة - إلى تفضيل الخير وأتباعه:

قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميِّتًا أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسوله»^(١).

٢ - أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية، إلى الإقرار بالمطلوب، الذي هو مضمون الدعوة، قال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ ٣٦ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمَصْبُطُونَ﴾ ٣٧ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُّوا سَمْعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَعْمِلُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ٣٨ ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ٣٩ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ٤٠ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ٤١ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ٤٢ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٤٣ ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ٤٤ ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: الآيات ٣٥ - ٤٥].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: الآية ٣٥] أي أوجدوا من غير موجود؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذکورًا»^(٢).

وهذه الآية في غاية القوة من حيث الحجة العقلية؛ لأن «وجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل. أما أن يكونوا هم الخالقين

(١) تفسير ابن كثير (١٧٢/٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٤٤/٤).

لأنفسهم، فأمر لم يدعوه، ولا يدعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى سوى الحقيقة التي يقولها القرآن. وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد^(١)، والتعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرر بدهاءة في العقل.

٣ - أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قوي في إفحام المعاندين، أصحاب الغرور والصلف، بإمرار أقوالهم، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة، منعاً للجدل والنزاع، خلوصاً إلى الحجة القاطعة تدمغهم، وتبطل بها حججهم تلك، فتبطل الأولى بالتبع، وفي قصة موسى ﷺ مع فرعون، نموذج مطول لهذا الأسلوب، حيث أعرض موسى عن كل اعتراض وشبهة أوردتها فرعون، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون، من خلال إقامة الحجة العقلية الظاهرة، على ربوبية الله والوهية الله^(٢)، وذلك في الآيات من سورة الشعراء، قال تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أَسِيلٍ إِيَّاكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِجَعَلَنَّاكَ مِنْ السَّاجِدِينَ ﴿الشُّعْرَاءُ﴾: الآيات ٢٣ - ٢٩ .

وهكذا كانت الأساليب القرآنية الكريمة، هي الركيزة في مجادلة رسول الله ﷺ للمشركين، ولما احتار المشركون في أمر الرسول ﷺ، ولم يكونوا على استعداد في تصديقه أنه رسول من عند الله، ليس لأنهم يكذبونه، وإنما عناداً وكفراً، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعَلْمُ إِنَّهُ لِيَحْرَزَنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿[الأنعام: الآية ٣٣] .

لذلك هداهم تفكيرهم المعوج، أن يطلبوا من الرسول ﷺ مطالب، ليس الغرض منها التأكد من صدق النبي ﷺ، ولكن غرضهم منها التعنت والتعجيز، وهذا ما طلبوه من الرسول عليه الصلاة والسلام:

- أ - أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً: أي يجري لهم الماء عيوناً جارية.
- ب - أو تكون له جنة من نخيل وأعناب، يُفجّر الأنهار خلالها تفجيراً، أي تكون له حديقة فيها النخل والعنب، والأنهار يُفجّر بداخلها.
- ج - أو يسقط السماء كسفاً: أي يسقط السماء قطعاً كما سيكون يوم القيامة.
- د - أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٣٩٩).

(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، د. علي بادحدح (ص ٥٩-٦٨) الأساليب السابقة من هذا الكتاب.

- هـ - أو يكون له بيت من زخرف: أي ذهب.
- و - أو يرقى في السماء: أي يتخذ سلماً يرتقى عليه ويصعد إلى السماء.
- ز - إنزال كتاب من السماء يقرؤونه: يقول مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه^(١).
- ح - طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم فيسير لهم الجبال، ويقطع الأرض ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى^(٢).

إن عملية طلب الخوارق والمعجزات، هي خطة متبعة على مدى تاريخ البشرية الطويل، ورغم حرص النبي ﷺ على إيمان قومه، وتفانيه في ذلك لكن التربية الربانية التي تلقاها من ربه، والأدب النبوي الذي تأدب عليه جعله يرفض طلب المعجزة^(٣)، وإنما كانت إجابته ﷺ:

«ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتمكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتمكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم»^(٤).

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما فاته، مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبادئهم إياه^(٥)، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعتات، والرد عليها في قوله سبحانه:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ۙ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْوَىٰ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ جَلَلَهَا فَنَجِيرًا ۙ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْسًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ سِيقًا ۙ أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّهِ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۙ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۙ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي مَطْمَئِينَ لَآتَيْنَاكَ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۙ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِمَا دُونَ ذَلِكَ بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٦]

ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا سَيَّرْتَ بِدِ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّ الْأَمْرِ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) انظر: المعوقون للدعوة الإسلامية، د. سميرة محمد (ص ١٧١، ١٧٢).

(٢) انظر: التربية القيادية (٣١١/١).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣١١/١).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤٥٩/١).

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شعبة (٣١٧/١).

تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تُحَلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿الرعد: الآية ٣١﴾^(١).

إن الحكمة في أنهم لم يجابوا لما طالبوا لأنهم لم يسألوا مسترشدين وجادين، وإنما سألوا متعنتين ومستهزئين، وقد علم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما طلبوا لما آمنوا، وللجوا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون. قال سبحانه:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَنَقَلْنَا الْقِدْسَةَ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰى مَرَّةً وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَكُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٩-١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية، ألا يجابوا إلى ما سألوا، لأن سنته سبحانه، أنه إذا طلب قوم آيات فأجيبوا، ثم لم يؤمنوا عذبهم عذاب الاستتصال، كما فعل بعاد وثمود، وقوم فرعون.

وليس أدل على أن القوم كانوا متعنتين وساخرين، ومعوقين لا جادين من أن عندهم القرآن، وهو آية الآيات، وبينه البيئات، ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الآيات وغيرها رد عليهم سبحانه^(٢) بقوله:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: الآيات ٥٠-٥٢].

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك - ﷻ - يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة. فقال: بل باب التوبة والرحمة؛ فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَمُودِ الْأَنفَاقَةِ مُتَجِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٩]^(٣).

(١) يعني لو أن هناك قرآناً بهذه الصفات أو هذه الشروط؛ لكان هذا القرآن الكريم، فهو ليس له مثل، لا من قبل ولا من بعد، جواب (لو) محذوف دل عليه المقام.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شعبة (١/٣٢٠، ٣٢١).

(٣) صحيح السيرة النبوية (ص ٩٠).

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب، هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية، وتأمراً على الحق، كي تتعد القبائل العربية عنه ﷺ؛ لأنهم يطالبون بأمر يدركون أنها ليست طبيعة هذه الدعوة، ولهذا أصروا عليها، بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شيء من ذلك، فلن يؤمنوا أيضاً بهذه الدعوة، وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول ﷺ، واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه^(١).

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكي، واستعانة مشركي مكة بهم:

تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سور كثيرة، بلغت خمسين سورة في المرحلة المكية، وفي المرحلة المدنية كان دور اليهود كبيراً في محاولة إطفاء نور الله، والقضاء على دعوة الإسلام، وعلى حياة رسول الله ﷺ، ولم تحظ ملة من الملل؛ ولا قوم من الأقوم، بالحديث عنهم بمثل هذا الشمول، وهذه التفصيلات، ما حظي به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتسم بمنهج دقيق، يتناسب مع المراحل الدعوية، التي مرت بها دعوة الإسلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى أن غفلة المشركين عن الحق، الذي جاء به رسول الله ﷺ، وعدم اكتراثهم به وبدعوته له نماذج بشرية تقدمتهم مثل عاد وثمود وفرعون وبني إسرائيل وقوم تبع، وأصحاب الرس^(٢).

عندما وجدت قريش نفسها عاجزة أمام دعوة الحق، وكان المعبر عن هذا العجز، النضر بن الحارث الذي صرح قائلاً: «يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد.. فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم» فقررروا بعد ذلك إرسال النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، لمعرفة حقيقة هذه الدعوة، لا لكي يتبعوها، ولكن لإدراكهم أن اليهود قد يمدونهم بأشياء تظهر عجز الرسول ﷺ، ولمعرفة زعماء مكة بحقد اليهود المنصب على الأنبياء جميعاً، وأصحاب الحق أينما كانوا؛ كانت بعثة المصطفى ﷺ صدمة قوية لليهود؛ وذلك لأنهم عاشوا في جزيرة العرب على حلم توارثوه طوال السنين الماضية، وهو أنه سيبعث نبي مخلص في ذلك الزمان والمكان، فرجوا أن يكون منهم؛ آملين أن يخلصهم من الفقرة والشتات الذي كانوا فيه^(٣).

كان التقارب بين معسكر الكفر والشرك مع اليهود، ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإسلام، ولذلك زودوا الوفد المكي ببعض الأسئلة محاولة لتعجيز النبي ﷺ.

عن ابن عباس - رضيه الله - قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى

(١) انظر: الوفود في العهد المكي (ص ٤٠ - ٥١).

(٢) معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، مصطفى مسلم (ص ٣٠، ٣١).

(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة، د، عبد الله الشقاري (١/١٨٨).

أخبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألا أخبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أخبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مثقول، فقررروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل مثقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالوا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أخبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا، فسأله عما أمرهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غداً عما سألتكم عنه، ولم يستثن^(١)، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل ﷺ، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألتنا عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل ﷺ من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معابته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله ﷻ:

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

كانت سورة الكهف قد احتوت على الإجابة لأستلتهم، وإشارة إلى أن كهفًا من عناية الله سوف يؤوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمد ﷺ، كما آوى الكهف الجبلي الفتية المؤمنين الفارين بدينهم من الفتنة.

وأن نفوسًا ستبش في وجوه هذه العصابة من أنصار دين الله في يثرب، بالقرب من الذين عاضدوا قريشًا في شكهم، وحاولوا معهم طمس نور الحق، بتلقينهم المنهج التعجيزي في الثبوت في أمر النبوة، وهو منهج غير سليم، فمتى كانت الأسئلة التعجيزية وسيلة التحقق من صدق الرسالة وصاحبها؟! فهذا نبي الله موسى عليه السلام، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه، وأنكر على الخضر تصرفاته، على الرغم من كل ذلك، لم تؤثر الأحداث وما دار حولها في نبوة موسى ﷺ شيئًا، ولم يشكك بنو إسرائيل في نبوته، فلم يجعلوا مثل هذه الأسئلة أسلوبًا للتحقق من صدق الرسالة^(٢).

(١) أي لم يقل: «إن شاء الله».

(٢) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم (ص ١٨٩).

جعل الله هذه المناسبة وسيلة للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة، ليجدوا مأوى كما وجد الفتية المأوى، وليبش في وجوههم أهل المدينة، كما بش أهل المدينة في وجه أحد الفتية، ثم ذهبوا إليهم ليكرمهم وليخلدوا ذكراهم^(١).

عاشراً: الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر السابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش، أمان صبر الرسول ﷺ، والمسلمين على الأذى، وإصرارهم على الدعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلوغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي، الذي ضربته قريش ظلماً وعدواناً على النبي ﷺ وأصحابه، ومن عطف عليهم من قرابتهم^(٢).

قال الزهري: «ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وأجمعت قريش في مكرها، أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية؛ فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً و يقيناً، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق؛ أن لا يتقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة، حتى يسلموه للقتل^(٣).

وفي رواية: «... على ألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سبياً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم^(٤).

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعاماً يقدم من مكة ولا يبيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ^(٥).

(١) انظر: تأملات في سورة الكهف للشيخ أبي الحسن الندوي (ص ٤٦)، وانظر: معالم قرآنية في الصراع مع اليهود (ص ٦١).

(٢) انظر: ظاهرة الإرجاء، د. سفر الحوالي (١/ ٥٠).

(٣) تفاصيل قصة الشعب وماتخللها من أحداث، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٨٠ - ٨٥) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣ - ٧٢) الروض الأنف (٢/ ١٠١ - ١٢٩).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٠)، زاد المعاد (٢/ ٤٦)، الكامل في التاريخ (٢/ ٨٧).

(٥) انظر: ظاهر الإرجاء (١/ ٥١).

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فأتى فراشه، حتى يراه من أراد به مكرًا أو غائلة، فإذا نام الناس، أخذ أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه، فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها^(١).

واشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني المطلب حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير، فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام^(٢)، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع^(٣)!

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيص الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشرف قريش، وكان الذين تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة، هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا يَنْكحون ولا ينكح إليهم، أما إنني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها؛ فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: ابغنا ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سرعًا، قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت لك ثانيًا، قال من؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من؟ قال: زهير بن أبي أمية، فقال: ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختری بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحدًا يعين على ذلك؟ قال: نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: ابغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحققهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد، قال: نعم، ثم سمي له القوم؛ فاتعدوا حَظْم الحَجَون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٨٠).

(٢) انظر: الغرياء الأولون (ص ١٤٨) نقلاً عن حلية الأولياء، ترجمة رقم (٧).

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٤٨).

سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: أأكل الطعام، ولبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يتعاون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البخترى: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقر به فقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبراً إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشورّ فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»^(١). وروى ابن إسحاق أن الله ﷻ أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله ﷻ إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك عمه، فذهب أبو طالب إلى قومه، وأخبرهم بذلك وقال لهم: فإن كان كاذبًا فلکم عليّ أن أدفعه إليکم تقتلون، وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهرکم علينا؟ فأخذ عليهم الموائيق وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ. فقال المطعم بن عدي، وهشام بن عمرو: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة، العادية الظالمة، ولن نمالي أحدًا في فساد أنفسنا وأشرفنا، وتتابع على ذلك ناس من أشرف قريش فخرجوا من الشعب^(٢).

* دروس وعبر وفوائد:

- ١ - إن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ، وحموه كأثر من أعراف الجاهلية، ومن هنا ومن غيره، نأخذ أنه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة، على أن يكون ذلك مبنياً على فتوى صحيحة من أهلها^(٣).
- ٢ - إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرة في أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موازنات دقيقة^(٤).
- ٣ - من المهم أن تعلم أن حماية أقارب رسول الله ﷺ له، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها، وإنما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين كوسيلة من وسائل الجهاد، والتغلب على الكافرين، والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٣ - ٥ / ٦٧ - ٦٩).

(٢) السير والمغازي لابن إسحاق (ص ١٥٦ - ١٦٢).

(٣) انظر: الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية، سعيد حوى (١/ ٢٦٤).

(٤) المصدر السابق نفسه.

بذلك من جهد مشكور وسبيل يتبهون إليها^(١).

- ٤ - انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشي بقصائده الضخمة، التي هزت كيانه هزاً، وتحرك لنقض الصحيفة من ذكرنا من قبل، أولئك الخمسة الذين يمتون بصلة قرابة أو رحم لبني هاشم وبني المطلب، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظلامة وهذا الحيف عن المسلمين وأنصارهم، وحلفائهم، وخطوطوا له، ونجحوا فيه. وفي هذا الموقف إشارة إلى أن كثيراً من النفوس، والتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهلي، قد تملك في أعماقها رفضاً لهذا الظلم والبغي، وتستغل الفرصة المناسبة لإزاحته، وعلى أبناء المسلمين أن يهتموا بهذه الشرائح، وينفذوا إلى أعماقها، وتوضّح لهم حقيقة القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وتبين لها طبيعة العداء بين الإسلام واليهود، والصليبيين والعلمانية، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام^(٢).
- ٥ - وظاهرة أبي لهب تستحق الدراسة والعناية، لأنها تتكرر في التاريخ الإسلامي، فقد يجد الدعاة من أقرب حلفائهم من يقرب لهم ظهر المجن، ويبالغ في إيذاء الدعاة، وحرهم، أكثر بكثير ممن يلقونه من خصومهم الألداء الأشداء^(٣).
- ٦ - كانت تعليمات الرسول ﷺ، لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدو، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يشعلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها؛ وإن أعظم تربية في هذه المرحلة، هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى، دون مقاومة. حمزة وعمر، وأبو بكر وعثمان، وغيرهم ﷺ، سمعوا وأطاعوا، فلقوا كل هذا الأذى، وهذا الحقد، وهذا الظلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط، أو يوماً واحداً فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم، ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس^(٤).
- ٧ - أثبتت الأحداث عظمة الصف المؤمن، في التزامه بأوامر قائده، وبعده عن التصرفات الطائشة؛ فلم يكن شيء أسهل من اغتيال أبي جهل، وإشعال معركة غير مدروسة لا يعلم إلا الله مداها، وغير متكافئة.
- ٨ - كانت الدعوة الإسلامية تحقق انتصارات رائعة في الحبشة، وفي نجران، وفي أزد شنوءة، وفي دؤس، وفي غفار، وكانت تتم في خط واضح، سيكون سندا للإسلام والمسلمين، ومراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة، تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية.

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، للبوطي (ص ٨٨).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ١٨٥).

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١٨٦).

(٤) انظر: التربية القيادية (١/٣٧١).

- ٩ - كانت هذه السنوات الثلاث للجيل الرائد، زادًا عظيمًا في البناء والتربية، حيث ساهم بعضه في تحمل آلام الجوع والخوف، والصبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضغط على النفوس والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار.
- ١٠ - كانت بعض الشخصيات في الصف المشترك، تبنى في داخلها بالتربية النبوية، وتتأثر بعظمة شخصية النبي ﷺ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادئ التي يقدمها الدين الجديد، لكن سيطرة الملأ وسطوة الكبراء، كانت تحول دون إبراز هذا التفاعل، وهذا الحب، وهذه التربية، وختم قصة الصحيفة تقدم لنا أجلى بيان عن ذلك^(١).
- ١١ - قيام الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثر في أصحاب الهوى، وعبدة المصالح والمنافع، لأنهم يلغون عقولهم عن التدبر، ويصمون آذانهم عن سماع الحق، ويغمضون أعينهم عن النظر والتأمل والاهتداء إلى الحق، بعد قيام الأدلة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرسول ﷺ بما حدث للصحيفة من أكل الأرضة لها، وبقاء اسم الله فقط (باسمك اللهم) ورأوا ذلك بأعينهم، فما آمن منهم أحد، إنه الهوى الذي يغشي عن الحق، ويصم الآذان عن سماعه^(٢).
- ١٢ - كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سببًا في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدعوة، التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش، والعزلة لكل هذا الوقت، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب.
- ١٣ - أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكة، لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النبي ﷺ وأصحابه، فما أن انفك الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وحتى ذاع أمر هذه الدعوة، وتردد صداها في كل بلاد العرب، وهكذا ارتد سلاح الحصار الاقتصادي على أصحابه، وكان عاملاً قوياً من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية، عكس ما أراد زعماء الشرك تماماً^(٣).
- ١٤ - كان لوقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله، وتحملهم معه الحصار الاقتصادي والاجتماعي أثر في الفقه الإسلامي، حيث إن سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم، وبني المطلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى:
- ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ

(١) المصدر السابق (/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٦٧).

(٣) انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام، د. عبد الوهاب كحيل (ص ١٠١).

السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيَّ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْاَلْتَمَعَانِ وَاللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: الآية ٤١] .

فيقول: «وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم، وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ، وحماية لهم، مسلمهم طاعة لله ورسوله، وكافرهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب؛ وأما بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم وناذبوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول ﷺ؛ ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم. . وفي بعض الروايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، وهذا قول جمهور العلماء إنهم بنو هاشم وبنو المطلب»^(١).

١٥ - لما أذن الله بنصر دينه، وإعزاز رسوله، وفتح مكة ثم حجة الوداع، كان النبي ﷺ يؤثر أن ينزل في حَيْفِ بني كنانة، ليتذكر ما كانوا فيه من الضيق والاضطهاد، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم، ودخولهم مكة - التي أخرجوا منها - وليؤكد قضية انتصار الحق واستعلائه، وتمكين الله لأهله الصابرين^(٢)، فعن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - قال: قلت يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ في حَجَّتِه - قال: «وهل ترك لنا عَقِيلَ منزلاً؟» ثم قال: «نحن نازلون غداً بِحَيْفِ بني كنانة، الْمُحَصَّبِ، حيث قاسمت قريش على الكفر، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم، أن لا يبايعوهم، ولا يُؤوُّوهم». قال الزهري: والخيف: الوادي^(٣).

١٦ - على كل شعب في أي وقت، يسعى لتطبيق شرع الله عليه، أن يضع في حسابه احتمالات الحصار والمقاطعة من أهل الباطل، فالكفر ملة واحدة. فعلى قادة الأمة الإسلامية، تهيئة أنفسهم، وأتباعهم، لمثل هذه الظروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن تفكر في مقاومة الحصار بالبدائل المناسبة، كي تتمكن الأمة من الصمود في وجه أي نوع من أنواع الحصار^(٤).

(١) تفسير ابن كثير (٣١٢/٢).

(٢) انظر: الغرابة الأولون (ص ١٤٩).

(٣) البخاري: كتاب الجهاد ١٨٠، باب إذا أسلم قوم في دار الحرب (٣٣/٤) ورقمه ٣٠٥٨.

(٤) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (٩٨).